الباب الرابع

المشـــروع الفكـــري لعبد الوهاب المسيري

الفصل الأول: الإطار العام والملامح الرئيسة

الفصل الثاني: عبد الوهاب المسيري في سياق الفكر الإسلامي

الفصل الثالث: مؤلفات الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري

الفصل الأول

الإطار العام والملامح الرئيسة

يُشاع في الأدبيات العربية والإسلامية أن المفكر الإنساني عبد الوهاب المسيري من المتخصصين في الشأن الصهيوني؛ أي الصهيونية ومتعلقاتها المختلفة. فلا يُكاد يذكر اسم المسيري حتى ينصرف ذهن السامع مباشرة إلى اليهود واليهودية والصهيونية.. وإذا أردنا أن نوظِّف بعض المباحث اللغوية واللسانية لقُلنا إنَّ المسيري هو الدَّال، والصهيونية هو المدلول..

وإذا كان المسيري ما فتئ يُحذر القارئ من خطورة المناهج/ النماذج الاختزالية التي تختزل الإنسان في بُعد أو بعض الأبعاد، وذلك أثناء التعامل مع جملة من الظواهر والقضايا المركَّبة، أقولُ رغم هذا التحذير فإنَّ «لعنة» الذهنية الاختزالية قد طاردت حتى المسيري، وليس فقط موضوعاته وقضاياه! ولسنا هنا بصدد الاستهانة بموضوع مثل الصهيونية واليهودية.. فنحن نعتقد أنَّ من بين أهم أسباب إخفاقنا في إدارة وتوجيه الصراع مع هذا الكيان المغتصِب هو فشلنا في بناء فهم سليم لهذا الكيان. وقد تبدَّت هذه النظرة الاختزالية في النسبة الكبيرة من

الحوارات والمقابلات التي أُجريت مع المسيري، والتي كان موضوعها الأساسي الصهيونية واليهودية واليهود..

نعم تلك النظرة راجعة إلى سبب موضوعي، وهو كون المسيري ألَّف موسوعة ضخمة لم يسبقه إليها أحد في عالمنا العربي والإسلامي، لا في الأولين ولا في الآخرين؛ فهو إنجاز معرفي علمي ضخم وثقيل. لكن الجهد الأكبر الذي يبذله رواد تلك النظرة مُتصل بالأساس بما جاء في الموسوعة من معلومات.. ولا ينصرف هذا الجهد إلى الإطار الذي ينتظم وتدور حوله تِلكُم المعلومات. وإنَّ عملاً وجهداً من هذا القبيل يجعل الباحث أو القارئ يتيه في بحر المعلومات، دون أن يرى ما يربط هذه المعلومات بعضها ببعض[1].

يقول المسيري تعليقا على هذه الحقيقة: «ولي تعليق على تصنيفي كمتخصِّص في الدراسات الصهيونية، فعملية التصنيف في العالم العربي لا تتم حسب المنهج والاتجاه الفكري، وإنَّما حسب الموضوع الذي تكتب فيه.. ثم يضيف المسيري موضحاً: أنا أزعم أن موسوعتي عن الصهيونية في المجلد الأول لا تتعامل مع اليهود، وإنَّما تتعامل مع المنهج والتحليل مع استخدام اليهودية كدراسة حالة، باعتبارها نموذجا لتفسير الظواهر التالية: «الحلولية، العلمانية، الجماعات الوظيفية»[2].

---

(1) في الإضافات «المسيرية» النوعية: للمشروع العربي الإسلامي، جواد الشقوري، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات، القاهرة ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

(2) حوار مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، بعنوان: هل الإسلام يمتلك رؤية حداثية معاصرة تُقدم حلولاً لمشكلات العالم!، مجلة العالِم، السعودية، العدد 10 ـ ص 53.

وأهم ما يُميِّز عالم عبد الوهاب المسيري الفكري: موسوعيته وتعدُّد مجالات عطائه وتكامل خبراته، من الكتابة الموسوعية إلى الكتابة للأطفال، وهو يصرِّح بأنه لم يكن لديه دافع مُسبق للتوصل إلى فكر جديد، وإنَّما كان هناك بحث عن الحقيقة. وهو بدأ رحلته المعرفية كعلماني/ مادي. وبالتدريج وجد أن العلمانية المادية لا تفسر أشياء كثيرة في الإنسان، وبدأت تتساقط هذه المنظومة المادية تدريجيا. والمسيري يعبِّر عن مسار هذا التحول بقوله: «كلما سقطت مقولة كنتُ أحاول سدّ الثغرة بطريقة ما أو بترقيع ثوبي المادي ما حتى أبقى داخل الإطار المادي، إلى أن وجدت الرُّقع أصبحت أكثر من الثوب، وأنه من المستحيل الاستمرار في «ترقيع» المنظومة، وأن الأمانة الفكرية والعقلية تتطلب مني تبني منظومة أخرى، ومن هنا اضطررت إلى خلع الثوب المادي واستبداله بثوب إيماني إنساني. وطرحت هذه الرؤية الجديدة المرتبطة بقراءاتي وبمعايشتي لمجموعة من الأحداث. ولا أدري هل يُمكن تسمية هذا «مدرسة» أم أنه رؤية أو اتجاه أو منهج: على كلٍّ هذه مسألة نتركها للقراء وللنقاد، فهم الذين يقومون بالتقييم والتصنيف»[1].

ومن العوامل التي يُشير المسيري إلى مساهمتها في تحوُّله من المادية الغربية إلى الإيمانية الإسلامية، أن الفكر الغربي سواء أكان مثالياً أو مادياً هو في النهاية فكر مادي وينطلق من منهج مادي بحت في النظر إلى الطبيعة والإنسان والحياة. فمثالياته تتحرك تحت السقف المادي، وشعوره بعدم تحقق الإشباع الفكري إلى جانب الرؤية الإيمانية الكامنة

(1) حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، إعداد وتحرير: سوزان حرفي، كتاب قيد النشر حصلنا عليه مخطوطاً من الدكتور عبد الوهاب المسيري.

في وجدانه. فالشَّيء ونقيضه كانا فاعلين. والرؤية الإيمانية بصفة خاصة كانت كامنة في وجدانه وأخذت شكل الإيمان بالإنسان ككائن متجاوز. وقد أدَّى هذا إلى اهتدائه إلى الإنسان ككائن يُوجد داخله ما هو متجاوز للسطح المادي والحتميات التاريخية والبيولوجية. وعندما وصل المسيري إلى أن النموذج المادي عاجز عن تفسير ظاهرة الإنسان وأنه لا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا باللجوء لنماذج غير مادية، عاد إلى الرؤية الإيمانية. وبالتالي ـ حسب تعبير المسيري ـ : «وصلتُ من الإنسان إلى الله، ولم أصل من الله إلى الإنسان»[1].

ونُقطة البداية، التي انطلق منها في رؤيته للكون والحياة اكتشافه أن الحياة الإنسانية مُركَّبة ومفعمة بالأسرار والثنائيات والتنوع، وليست بسيطة أو سطحية أو أحادية، وأن الإنسان كائن فريد غير مادي وغير طبيعي رغم أنه يعيش داخل العالم الطبيعي/ المادي. وكان رفض الواحدية وإدراك ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة، وما ينجم عنهما من ثراء وتركيب وتعدُّدية، هما مدخله لفهم العالم من حوله ولفهم الآخرين، ولفهم ذاته. والمسيري في المقابل لا ينكر الدنيا بل يؤمن بضرورة فهمها والتمتع بها، فهي المجال الذي يُحقق فيه الإنسان حريته وإمكاناته، والإمكانات التي يحبو الله بها الإنسان هي نعمة تُسعده إن اعترف بها وحقَّقها، وهي نقمة تعذبه إن أنكرها وبدَّدها. والإنسانية المشتركة مفهوم محوري في رؤية المسيري الفكرية وفكرة الإنسانية المشتركة، تعني أن الإنسان ليس كائناً مادياً. وهذه الفكرة تدور في إطار ما يُسمى بالثورة التوليدية التي تذهب إلى أنه يوجد في العقل أفكار كامنة

(1) حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، إعداد وتحرير: سوزان حرفي.

لا تُكتسب عن طريق التجربة وإنَّما تسبقها، فهي ليست معرفة مكتسبة وإنما مفطورة في العقل الإنساني، وهذه فكرة تتفق تماماً مع مفهوم الفطرة في الإسلام. كل هذا يقفُ على طرف النقيض من الرؤية المادية التي ترى العقل صفحة بيضاء، وأن كل المعرفة مكتسبة من خلال التجربة. وفكرة العقل التوليدي هذه تشير إلى شيء غير محدود بحدود المادة وإنَّما يتجاوزها. بمعنى أنه لا يوجد زمان عام ولا مكان عام، يوجد زمان عربي ومكان عربي، وزمان غربي ومكان غربي، وزمان صيني ومكان صيني، والزمان والمكان يُسمان الحضارات المختلفة، على الجميع أن يحترموا هذا الاختلاف طالما أنه داخل فكرة الإنسانية المشتركة[1].

وهذا يعني، بالتالي، أنَّ لكل حضارة مقاييسها ومعاييرها، وهذا يعني قبول قدر من النسبية والاختلاف وعدم التجانس واحترام الآخر، على أن تظل الإنسانية المشتركة المرجعية النهائية لنا جميعاً حتى لا نسقط في النسبية الشاملة العدمية، وأطلق المسيري على هذا الموقف اسم «النِّسبية النَّسبية»، فهي ليست نسبية شاملة ومطلقة، إذ تظل هناك معايير وقيم ومرجعية نهائية متجاوزة لصيرورة المادة! والمسيري يؤمن بأنَّ الحيز الإنساني مختلف عن الحيز الطبيعي المادي، مُستقل عنه، وأنَّ الإنسان يوجد في الطبيعة ولكنه ليس جزءاً عُضوياً منها، لأنَّ فيه من الخصائص ما يجعله مختلفا عن النظام الطبيعي/ المادي، ومن ثم فهو قادر على تجاوزها وتجاوز قوانينها الحتمية، وصولا إلى رحابة الإنسانية وتركيبيتها (وهذا مصدر ثنائية الإنساني والطبيعي التي تسمُ كل الأنساق

(1) حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيرى، إعداد وتحرير: سوزان حرفي.

المعرفية الهيومانية الإنسانية، دينية كانت أم إلحادية). ويرى المسيري أن الطبيعة، في الخطاب الفلسفي الغربي الحديث نظام يتحرك بلا هدف أو غاية، نظام واحدي مُغلق مكتّف بذاته، تُوجد مقوّمات حياته وحركته داخله، يحوي داخله ما يلزم لفهمه، لا يُشير إلى أي هدف أو غرض خارجه، وهو نظام ضروري كُلّي شامل، تنضوي كل الأشياء تحته.

والتفكير المادي يرى أسبقية الطبيعة على الإنسان ومن ثم يختزله إلى قوانينها ويخضعه إلى حتمياتها بحيث يُصبح جزءاً لا يتجزأ منها، ويختفي ككيان مركب متجاوز للطبيعة وللمادة، منفصل نسبيا عما حوله وله قوانينه الإنسانية الخاصة، أي أنَّ الحيز الإنساني يختفي ويبتلعه الحيز المادي، وبدلاً من ثُنائية الإنساني والطبيعي تظهر الواحدية الطبيعية. ولكن صفات الطبيعة التي أدرجناها هي ذاتها صفات المادة بالمعنى الفلسفي، ولذا فنحن نرى أن كلمة «المادة» يجب أن تحلَّ محلَّ كلمة «الطبيعة» أو أن تُضاف الواحدة للأخرى، وذلك لفك شفرة الخطاب الفلسفي الذي يستند إلى فكرة الطبيعة، ولكي نفهمه حق الفهم وندرك أبعاده المعرفية المادية. وقد فكَّ هتلر شفرةُ الخطاب الفلسفي الغربي بكفاءة غير عادية حينما قال: «يجب أن نكون مثل الطبيعة، والطبيعة لا تعرف الرحمة أو الشَّفقة». وهو قد تَبِعَ في ذلك كُلا من داروين ونيتشه، وانطلق من واحد من أهم التقاليد الأساسية في الفلسفة الغربية![1]

والمادة ـ بحسب هذه الفلسفة ـ لا تسبق العقل وحسب، وإنَّما تسبق الأخلاق كذلك، ولذا، فإنَّ الأخلاق تُفسر تفسيراً مادياً ووفقاً لقانون طبيعي. فمنطق الحاجة الطبيعية المباشرة هو الذي يتحكم في

(1) حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، إعداد وتحرير: سوزان حرفي.

الأخلاق الإنسانية، تماما مثلما تتحكَّم الجاذبية في سقوط التفاحة. ونفس الشيء ينطبق على المعايير الجمالية، فالمشاعر والإحساس بالجمال وكل الأحاسيس الإنسانية يمكن فهمها بردِّها إلى المبدأ المادي الواحد، فهي مجرد تعبير عن شيء مادي يوجد في الواقع المادي. وأخيراً، المادة تسبق التاريخ كذلك، ولذا فكُل تطور يتوقف على الظروف المادية والاقتصادية. ونوع الإنتاج في الحياة المادية شرط تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية على العموم. فالبناء الفوقي (الفكري والعقلي والنفسي) يُردُّ في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، إلى المادة، أو ما يُسمى البناء التَّحتي[1].

ويُفرق المسيري بين العقلانية والمادية. فالعقلانية هي الإيمان بأنَّ العقل قادر على إدراك الحقيقة من خلال قنوات إدراكية مختلفة، من بينها الحسابات الكمية الصارمة والحواس الخمس، كما أن من بينها أيضاً الخيال والعاطفة والحدس والإلهام. بمعنى أن العقل حينما يواجه الواقع فإنَّه يواجه واقعا قد يكون مادياً بسيطاً، ولكنه قد يواجه حقيقة إنسانية مُركبة، بل أحياناً حقائق تشكل انقطاعاً في النظام الطبيعي أو النسق التاريخي. ولذا، فإن على العقل ألا يواجه الواقع بصيغة جاهزة بسيطة، وعليه أن يُدرك المعلوم، وألا يرفض وجود المجهول، وإلا أصبح آلية لاختزال الواقع وتسويته، بدلا من أن يكون أداة لرصده وتحليله وتفسيره. لكن هناك فضاء آخر هو «القيمة»، وهي شيء متجاوز لعالم المادة وهو قادر على إدراك «ما هو قائم» وليس «ما ينبغي أن يكون»، لأن «ما ينبغي أن يكون» ينتمي إلى عالم غير العالم المادي المحسوس.

(1) حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، إعداد وتحرير: سوزان حرفي.

بل إنَّ العقل المادي مُعاد للتاريخ، لأن التاريخ بُنية غير طبيعية غير مادية تتَّسم بالتنوع والتركيب والإبهام، ولا يمكن لهذا العقل أن يتعامل معها بكفاءة، فهو يُجيد التعامل مع الأرقام والكم والكثافة والحجم والوزن. ولذا العقل المادي حين يتعامل مع التاريخ يحاول أن يُدخله الحيِّز المادي، فيتحدث عن «الحتمية التاريخية» وكأنها حتمية بيولوجية مادية. إنَّ العقل المادي يتجه نحو اختزال الواقع المركب وإلى قوانين عامة تُؤكد التماثل والعمومية، ولكنه في الوقت ذاته بسبب التصاقه بعالم الحواس يسقط في التفاصيل، فكأنه يتأرجح بُعنف بين العام، الموغل في العمومية، والخاص الموغل في الخصوصية. فهو عقل يشبه أشعة إكس من ناحية، يمكنها أن تعطينا صورة لهيكل الإنسان العظمي، لكنها لا يُمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنساني في أحزانه وأفراحه. ومن ناحية أخرى، يشبه الميكروسكوب الذي يعطينا أدق تفاصيل الخلية دون أن يمكنه أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذا العالم. وقد خلصتُ من كل هذا إلى أنَّ العقل المادي عقل عنصري إمبريالي لأنه يُسقط مفهوم الإنسانية المشتركة (فهو مفهوم كلي نهائي مركب لا يمكن قياسه) ولا يُجيد إلا اختزال الواقع بهدف توظيفه. هذا العقل هو الكامن وراء مفهوم العقلانية الغربية ومن هنا تسميتي لها بالعقلانية المادية، وهو الذي يؤدي إلى إعادة صياغة العالم الغربي بل والعالم بأسره في الإطار المادي[1].

ويرصدُ المسيري الرؤية المادية الأكثر معاداة للإنسان وهي الرؤية «اللاعقلانية المادية»، فمن ثمرات العقل المادي ما يُسمى «الترشيد» الذي ثبت أنه محاولة توظيف الوسائل بأحسن السبل في خدمة الغايات،

(1) حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، إعداد وتحرير: سوزان حرفي.

أي غايات عقلانية كانت أم غير عقلانية. وهذا يعني أن يتعلم الإنسان كيف يَبني جسراً أو طريقاً، ولا يهم إلى أين سيؤديان: إلى الجنة أم إلى الجحيم؟ المهم هو طريقة بناء الجسر، مما يؤدي إلى عقلانية الوسائل (كيف تَقتُل؟) لاعقلانية الغايات (لِمَ تَقتُل؟).

هذا يعني في واقع الأمر أن رؤية عُنصرية ماديّة يمكن أن توظف خير الوسائل العلمية والتكنولوجية (العقلانية!) في خدمة اللاعقل، رُؤية قد تكون «واقعية» بالمعنى المادي، ولكنها لا تخضع بأية حال لأي منطق عقلي إنساني. ولذا نجد أن هناك تعايشاً كاملاً بين اللاعقلانية والعلم والتكنولوجيا. ألم يفعل ذلك المجتمعان النازي والصهيوني، فقد استخدما العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير عادية، وهما يستندان في الوقت ذاته إلى رؤية داروينية لا عقلانية مادية. لا تُؤمن سوى بالقوة وترفض الاحتكام إلى أيِّ قِيمٍ عقلانية إنسانية توجد خارجها. وهناك من يرى أن الإبادة النازية للملايين (من الغجر والسلاف واليهود والأطفال المعاقين ومن المسنين) ممن صنفوا باعتبارهم «أفواها مستهلكة غير منتجة» إنما هو أحد إنجازات العقلانية المادية... أي أن العقل المادي هنا قام بتفكيك البشر بصرامة بالغة وكفاءة مدهشة، ونظر إلى الجميع بعيون زجاجية وكأنه كمبيوتر مُتألِّه، في غاية الذكاء، لا قلب له ولا روح! فالعقل المادي قام بتفكيك الإنسان ووظَّف آخر صيحات العلم والتكنولوجيا وبكفاءة غير عادية في خدمة رؤية عنصرية متخلفة داروينية مادية غير أخلاقية، غير عقلانية. فهذه لا عقلانية مادية، إذ لا يمكن أن تُوصف مثل هذه الأفعال بأنها عقلانية[1].

(1) حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، إعداد وتحرير: سوزان حرفي.

ويرى بعض مُؤرخي الثورات التي تدور في إطار النماذج العقلانية المادية أن ظهور مثل هذا «الكمبيوتر المتألِّه» مسألة حتمية، وأنَّه قد يأخذ ـ بعد استقرار الثورة وتحولها إلى مؤسسات ـ شكل لجان خبراء ومستشارين! بل يرون أن هذه ظاهرة حتمية لصيقة بالمجتمعات الحديثة، التي تُعرِّف النمو والتقدم والإنسان من منظور عقلاني مادي، وأنَّ التكنوقراطية ونظريات التلاقي (بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي) ووحدة العلوم والاتجاه نحو التنميط أو الكوكبة والعولمة، إنما هي كلها تعبير عن هذا الاتجاه[1].

ومن المصطلحات الأساسية التي تتكرَّر في معجم المسيري الفكري «المرجعية النهائية»، وقد أصبحت الآن تتكرر في الخطاب الإسلامي السياسي الحديث، وفي قاموس المسيري الفكري تعني كلمة «مرجعية»: «الفكرة الجوهرية التي تُشكل أساس كل الأفكار في نموذج معين، والركيزة النهائية الثابتة له التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها (فهي ميتافيزيقا النموذج). والمبدأ الواحد الذي تُردّ إليه كل الأشياء وتُنسَب إليه ولا يُردّ هو أو يُنسَب إليها. ومن هنا، يمكن القول بأن المرجعية هي المطلق المكتفي بذاته الذي يتجاوز كل الأفراد والأشياء والظواهر وهو الذي يمنح العالم تماسكه ونظامه ومعناه ويحدد حلاله وحرامه. وعادةً ما نتحدث عن المرجعية النهائية باعتبار أنها أعلى مستويات التجريد، تتجاوز كل شيء ولا يتجاوزها شيء»[2].

---

(1) حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، إعداد وتحرير: سوزان حرفي.

(2) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق ـ القاهرة ـ 1999 ـ المجلد الأول، ص 54.

ويمكننا الحديث عن مرجعيتين: مرجعيةٌ نهائية مُتجاوزة ومرجعيةٌ نهائية كامنة.

أما الأولى فيمكن أن تكون نقطة خارج عالم الطبيعة مُتجاوزة لها ويسميها المسيري «المرجعية المتجاوزة» (للطبيعة والتاريخ والإنسان). وهذه النقطة المرجعية المتجاوزة، في النُّظم التوحيدية، هي الإله الواحد المنزَّه عن الطبيعية والتاريخ، الذي يُحركهما ولا يَحلُّ فيهما ولا يمكن أن يُردَّ إليهما. ووجوده ضمان أن المسافة التي تفصل الإنسان عن الطبيعة لن تُختَزل ولن تُلغى. فالإنسان قد خلقه الله ونفخ فيه من روحه وكرَّمه واستأمنه على العالم واستخلفه فيه، أي أن الإنسان أصبح في مركز الكون بعد أن حمل عِبْء الأمانة والاستخلاف. كل هذا يعني أن الإنسان يحوي داخله بشكل مطلق الرغبة في التجاوز ورفض الذوبان في الطبيعة، ولذا فهو يظلُّ مقولة مستقلة داخل النظام الطبيعي. كما أنه يعني أن إنسانية الإنسان وجوهره الإنساني مرتبط تمام الارتباط بالعنصر الرباني فيه. ومع هذا فبإمكان النظم الإنسانية الهيومانية (التي لا تعترف بالضرورة بوجود الإله) أن تجعل الإنسان مركز الكون المستقل القادر على تجاوزه ومن ثم تُصبح له أسبقية على الطبيعة/ المادة[1].

أما المرجعية النهائية الكامنة، فيقصد بها أن تكون المرجعية النهائية كامنة في العالم (الطبيعة أو الإنسان)، ومن هُنا تسميها بالمرجعية الكامنة. وفي إطار المرجعية الكامنة، يُنْظر للعالم باعتبار أنه يحوي داخله ما يكفي لتفسيره دون حاجة إلى اللجوء إلى أي شيء خارج النظام

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق ـ القاهرة ـ 1999 ـ المجلد الأول، ص 54.

الطبيعي. ولذا، لابد أن تسيطر الواحدية (المادية)، وإن ظهرت ثنائيات فهي مؤقتة يتمُّ محوها في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، ففي إطار المرجعية الكامنة لا يُوجد سوى جوهر واحد في الكون، مادة واحدة يتكون منها كل شيء، وضمن ذلك المركز الكامن نفسه. ويذهب إلى أن كل النظم المادية تدور في إطار المرجعية الكامنة لذا، يُشير، إلى المادية باعتبارها وحدة الوجود المادية. وفي إطار المرجعية المادية الكامنة، فإنَّ الإنسان كائن طبيعي وليس مقولة مستقلة داخل النظام الطبيعي، وإنما هو مُستوعَب تماماً فيه، ويَسقطُ تماماً في قبضة الصيرورة، فتسقط المرجعية الإنسانية وتُصبح الطبيعة/ المادة المرجعية الوحيدة النهائية[1].

ويذهب دعاة المرجعية المادية الكامنة إلى أن رغبة الإنسان في التجاوز رغبة غير طبيعية، ومن ثم غير إنسانية (باعتبار أن الطبيعي والإنساني مُترادفان)، وإلى أن الأجدر بالإنسان أن يذوب في الكل الطبيعي بحيث يظهر الإنسان الطبيعي. وبهذا المعنى، فإنَّ المرجعية الكُمونية المادية تشكل هجوماً على الإنسان ككيان حر مستقل عن الطبيعة/ المادة وعلى مركزيته في الكون. وقد وُصفت الوثنية بأنها محاولة إنزال الآلهة من السماء إلى الأرض (وإدخالها في نطاق المرجعية المادية الكامنة) بحيث تخضع لقوانين الأرض الطبيعية/ المادية، ومن ثم يخضع الإنسان هو الآخر لهذه القوانين، إذ كيف يمكنه تجاوزها إذا كانت الآلهة نفسها خاضعة لها؛ مستوعَبة تماماً في الواحدية المادية الكونية؟ (والنزعة الوثنية لا تختلف في هذا عن النزعات العلمانية المادية

---

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق ـ القاهرة ـ 1999 ـ المجلد الأول، ص 54 ـ 55.

الطبيعية التي ترجع كل شيء إلى الطبيعة/ المادة وتنكر أي إمكانية للتجاوز الإنساني).

أما الديانات التوحيدية، فهي نوع من محاولة الصعود بالإنسان إلى الإله في السماء (وإدخاله في نطاق المرجعية المتجاوزة). فالإنسان، بما فيه من رغبة في التجاوز، له قانون خاص ووجود مستقل عن المادة وعن الطبيعة. ومن ثم تُطرح أمام الإنسان إمكانية أن يعبِّر عما بداخله من طاقات غير مادية (ربانية إنْ شئت)، وأن يتجاوز قوانين الطبيعة والمادة ويُحقق القانون الإلهي (أو الجوهر الإنساني) المختلف عن القانون المادي الطبيعي[1].

ولعل هذا النقد للمادية أقسى ما وُجِّه لها من نقد في الفكر العربي الحديث، إذ يُعدُّ الربط بين الرؤية المادية للذات والكون والإنسان بوصفها «إعادة إنتاج للوثنية»، وهذا التأصيل المعرفي الجذري لرفض المادية، من أهم ما أنجزه المسيري على الإطلاق، بل ربما تفوق أهميته اجتهاداته في بناء منهج جديد للبحث، ودراساته في الصهيونية التي كانت أكثر أعماله إثارة للاهتمام.

وقد أدخل المسيري من خلال رُؤيته الفكرية عناصر تم إقصاؤها من العقل العربي بل الإسلامي منذ ما يقرب من قرنين من الزمان مع طوفان التغريب الفكري الكاسح الذي شهده العالمان العربي والإسلامي مع الصعود الحضاري والسياسي والعسكري الغربي، ومن هذه المفاهيم، ما

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق ـ القاهرة ـ 1999 ـ المجلد الأول، ص 55.

يسميه عبد الوهاب المسيري: «المسافة» ويرى أنها مرتبطة تمام الارتباط بفكرة الحدود[1]. فكأن الحدود مرتبطة كل الارتباط بوجود الشيء وبمضمونه الأخلاقي وبإمكانية معرفته ودلالته وهويته. ويذهب المسيري إلى أن المنظومات المعرفية التي تدور في إطار المرجعية المتجاوزة (مثل العقائد التوحيدية) نُظم تحتفظ بالحدود الفاصلة بين الخالق العلي المتجاوز ومخلوقاته، فهو مركز النموذج المفارق والمتجاوز له. ولذا، تظل المسافة والحدود قائمة بين الخالق والمخلوق لا يمكن اختزالها مهما كانت درجة اقتراب المؤمن من الإله. ومن هنا، لا يمكن في الإطار التوحيدي أن «يصل» المتصوف إلى الالتصاق بالإله أو الاتحاد به، فثمة مسافة جوهرية ثابتة. ولذا، فإنَّ رسول الله نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم «يَصِلْ»، بل ظلَّ قاب قوسين أو أدنى في أقصى حالات الاقتراب. وهذا ما سماه أحد الفقهاء «البَينية»، أي وجود حيِّز «بين» الخالق والمخلوق.

ووجود الحدود بين الخالق والمخلوق يعني أنّ المخلوق له حدوده لا يتجاوزها، ولكنها تعني أيضاً أنه له حيزه الإنساني المستقل، ولذا يظلُّ الإنسان صاحب هوية محددة وجوهر مستقل، ومن ثم فهو كائن حُر

---

(1) الحد في اللغة يعني «المنع والفصل بين الشيئين»، و«منتهى كل شيء» هو «حده» (المعنى الأنطولوجي). والحد هو أيضاً تأديب المذنب كقولنا: «طُبِّقَ عليه الحد»، و«حدود الله تعالى» هي الأشياء التي بيَّن حرامها وحلالها (المعنى الأخلاقي). و«الحد» هو «التعريف الكامل» أو «تحليل تام لمفهوم اللفظ المراد تعريفه»، و«حد الشيء» هو «الوصف المحيط بمعناه المميِّز له عن غيره» (المعنى الدلالي). وأخيراً «حدّ الشيء» مصدر تميُّزه وهويته (المعنى النفسي). أنظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، 1999م، المجلد الأول، ص 55.

مسئول. والمسافة بين الخالق والمخلوق يمكن أن تصبح ثغرة أو هوة إن ابتعد المخلوق عن خالقه وانعزل عنه ونسي خصائصه الإنسانية (المرتبطة بأصله الرباني) التي تُميزه عن بقية الكائنات. ولكن إن حاول الإنسان التفاعل مع الإله وتذكّر أصوله وأبعاده الربانية التي تميزه عن الكائنات الطبيعية، فإنَّ المسافة تتحول إلى مجال للتفاعل ويُصبح الإنسان نفسه كائناً مُستخلَفاً في الأرض يشغل المركز، وذلك بسبب القبس الإلهي داخله وبسبب تفاعله مع الخالق[1].

أما في المنظومات التي تدور في إطار المرجعية الكامنة (مثل النُّظم الحلولية)، يُحاول المخلوق، أي الإنسان، أن يضيِّق المسافة بينه وبين الخالق تدريجياً إلى أن يصل إلى الإله ويلتصق به ثم يتوحَّد معه، وبذا يصل إلى مرحلة وحدة الوجود، حين يُصبح المركز كامناً في الإنسان وفي كل المخلوقات وفي العالم المادي، إذ تُلغى المسافة بين الخالق ومخلوقاته ويختفي الحيِّز الإنساني ويُصبح الخالق ومخلوقاته واحداً، ويُردُّ الكون بأسره إلى مبدأ واحد فتُلغى المسافات وتُسد الثغرات، ويُصبح الكون كياناً عضوياً صلباً (أو ذرياً مُفتتاً) تسوده الواحدية المادية. وهنا يُصبح الإنسان جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة/المادة ليس له ما يميِّزه عن بقية الكائنات، وتضيع الحدود بين الخير والشر وبين الدَّال والمدلول[2].

ويصُوغ المسيري مقابلاً معرفياً لفكرة وجود الله في الأديان

---

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة ـ 1999 ـ المجلد الأول، ص 55 ـ 56.

(2) المصدر السابق، المجلد الأول ص 56.

السماوية، ففي مدخل عنوانه «المركز[1]» في «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» يقول: نحن نستخدم كلمة «مركز» بمعنى: مُطلق مكثَّف بذاته، لا يُنسَب لغيره، واجب الوجود، لا يمكن أن تقوم رؤية للعالم بدونه. وفي إطار المرجعية المتجاوزة، فإنَّ مركز الكون مُتجاوز للكون منزَّه عنه، أما في إطار المرجعية المادية الكامنة فمركز الكون كامن فيه. والمركز عادةً موضع الكُمون والحلول أو النقطة التي تتحقق فيها أعلى درجاته، ومن ثمَّ فإنَّ العنصر (المادي) الذي يشغل المركز في المنظومات الكُمونية تكون له أسبقية على بقية العناصر. وفي إطار إدخاله المفاهيم الغيبية المؤسسة للرؤية المادية نطاق التحليل المعرفي يصُوغ المسيري مفهوم: «المبدأ الواحد» ويقصد حقيقة أن المنظومات الحلولية الكُمونية الواحدية (الروحية والمادية) تشير إلى مصدر وحدة الكون وتماسكه وهو القوة الدافعة التي تضبط وجوده، وهي قوة سارية في الأجسام، كامنة فيها، وتتخلَّل ثناياها وتضبط وجودها، قوة لا تتجزأ ولا يتجاوزها شيء ولا يعلو عليها أحد. وهي النظام الضروري الكلي للأشياء؛ نظام ليس فوق الطبيعة وحسب، ولكنه فوق الإنسان أيضاً، لا يمنحه ـ أو أي كائن آخر ـ أية أهمية خاصة. هذه القوة قد يجسِّدها الموجود ويصل إلى كماله الطبيعي من خلالها، ولكنها هي أيضاً قوة غير مُتعيِّنة لا تكترثُ بالتمايز الفردي. وهذه القوة يسميها دُعاة وحدة الوجود

---

(1) كلمة «المركز» من فعل «ركز»، ويقال: «ركز السهم في الأرض» بمعنى «غرزه» و«ركز الله المعادن في الأرض أو الجبال» بمعنى «أوجدها في باطنها». و«المركز» هو «المقر الثابت الذي تتشعب منه الفروع»، و«مركز الدائرة» نقطة داخل الدائرة، تتساوى الشعاعات الخارجة منها إلى المحيط. أنظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، 1999م ـ المجلد الأول، ص 56 ـ 57.

الروحية «الإله»، بينما يطلق عليها دعاة وحدة الوجود المادية «قوانين الحركة»، أو أية عبارات أخرى. وحيث إن المبدأ الواحد كامن في الظواهر الطبيعية فنحن نشير إليه أحياناً باعتباره «المبدأ المادي الواحد». والمبدأ الواحد هو عادةً مركز النَّسق، وهو يأخذ أشكالاً مختلفة أهمها «الطبيعة/ المادة»، وتنويعات أخرى عليها نُسميها «المطلقات العلمانية»[1].

ويفرق المسيري بين المطلقات في الرؤيتين الإيمانية والمادية مستخدماً مفردات: «المعنى والهدف والغاية»، ويعني بها الإيمان بأنَّ العالم له معنى وغاية (وعكسها «العدمية»)، وهذا ما تفترضه الديانات التوحيدية ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران 191] فإنَّ كان للوجود معنى، فحياة كل إنسان لها معنى، ولا يمكن تصوُّر معنى لعالم تسود فيه الصدفة، وتتم عملية خلقه بالصدفة المحضة، أو تكون حركته حركة مادية آلية مثل حركات الذرة. فإذا كانت حركة الإنسان هي نفسها حركة المادة، وكانت حركة المادة حتمية وتتمُّ خارج وعي الإنسان وخارج أية غائية إنسانية، فإنَّ كل ما يحدث سيحدث، ولا يمكن أن تنطبق عليه معايير خارجة عنه، أي أن كل الأمور تُصبح نسبية بل حتمية وتتم تسوية الإنسان بالأشياء. والعلم الطبيعي الذي يتعامل مع الأشياء أو مع الإنسان بمنطق الأشياء يُنتج معرفة منفصلة عن القيم الأخلاقية، بل إنَّ تَقدُّم العلم مرتبط تمام الارتباط بانفصاله عن القيمة والغائية (إلى أن تنفصل النزعة التجريبية عن النزعة العقلانية تماماً).

ومن هنا التمييز بين «المعنوي» و«المادي»، فالمعنوي مرتبط

---

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة ـ 1999 ـ المجلد الأول، ص 56 ـ 57.

بالهدف والغاية وهما يتجاوزان المادة، أما المادي فلا هدف له ولا غاية. ونلاحِظ أنه في الحضارات المادية (سواء الوثنية القديمة أو العلمانية الحديثة) التي تُعلي شأن المادة وترى أسبقيتها على الإنسان، أي ترى أسبقية المادي على المعنوي، يظهرُ ما يُسمَّى «أزمة المعنى» التي يعبَّر عنها بتعبيرات مثل: «الاغتراب» أو «اللامعيارية (الأنومي)» و«التشيؤ» و«التسلُّع» وغيرها... وفكر ما بعد الحداثة هو تعبير عن هذا الاتجاه الذي يشكل في واقع الأمر إذعاناً كاملاً لأزمة المعنى وعملية تطبيع اللامعيارية التي يُواجهها الإنسان الحديث[1].

الموقف من العلمانية:

وتأسيساً على هذه المفاهيم قام الدكتور عبد الوهاب المسيري بعمله الفكري الأهم بعد الموسوعة ونقصد به: «العَلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة»[2] وفيه تناول تعريف العلمانية وإشكاليتها، والحقل الدلالي والنظرة الغربية والعربية للمفهوم ومرجعيته. كما تناول بعض المصطلحات والظواهر الغربية ذاتُ الصِّلة به والمتتاليات النماذجية له، وتنحصر في عدة إشكاليات، يعرضها في المجلد الأول من الكتاب على النحو التالي:

1 ـ الفهم الضيِّق لمعنى العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة.

2 ـ تصوُّر العلمانية على أنها مجموعة من الأفكار والممارسات الواضحة.

---

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد، تأليف وإشراف: دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة ـ 1999 ـ المجلد الأول، ص 56 ـ 57.

(2) العَلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر، 2002.

3 ـ إخفاق علم الاجتماع الغربي فى تطوير نموذج مركب وشامل للعلمانية.

4 ـ إلتباس الدلالات المختلفة للعلمانية.

إنَّ تحديد العلمانية بأنَّها فصل الدين عن الدولة أو السلطات الدينية عن السلطات السياسية هو أكثر التعريفات سطحية للعلمانية، فهو تعريف سطحي ساذج يظهر فقط فى أُولى مراحل التاريخ حيث يظهر تماماً انفصال الدين عن السياسة، وذلك الصراع القائم بين الكنيسة والدولة حول السيطرة على السُّلطات فى العصور الوسطى الأوروبيّة، إلا أنه بتطور المجتمعات الأوروبية المتقدمة تُصبح العلاقات سواء الاجتماعية أو الإنسانية أو حتى الإيديولوجية أكثر تركيباً وعمقاً، ومن هنا يرى المسيري أنَّ هذا الشكل المتمثل فى فصل الدين عن الدولة تعريف بسيط للعلمانية يُطلق عليه إسم العلمانية الجزئية[1].

وهو الشكل الذى ساد المجتمع الغربي فى البداية، حيث كان الدين والدولة يخضعان لمظلة سلطة واحدة، ولكن مع انحصار الدين داخل أماكن العبادة بينما كل مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أصبحت مستقلة ومُنفصلة عنه إن لم تكن معادية له، هنا نجد أنفسنا أمام علمانية أخرى تعتبر العلمانية الجزئية أحد مراحلها التاريخية، فمع مرور الوقت وتجاوز العلمانية المجالات العديدة من سياسية واقتصادية

(1) ويقصد بها رؤية جزئية للواقع تنطبق على عالم السياسة وربما على عالم الاقتصاد، ويعبر عنه بفصل الكنيسة عن الدولة، فهى رؤية ذات طابع جزئى للقيم ومرجعيتها. أنظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، دار الشروق، مصر ـ 2002 ـ ص 471.

وغيرها من المجالات وتحولها لتكون ظاهرة كاسحة، حدث تحول بنيوي عميق يتجاوز عملية فصل الدين عن الدولة لتظهر ما يطلق عليه المسيري العلمانية الشاملة[1].

«إنَّ العلمانية الجزئية مُرتبطة بالمراحل الأولى لتطور العلمانية الغربية، ولكنها بمرور الزمن، ومن خلال تحقُّق حلقات المتتالية النماذجية العلمانية، تراجعت وهُمِّشت، إذ تصاعدت مُعدلات العلمنة (وبخاصة فى العالم الغربي) بحيث تجاوزت مجالات الاقتصاد والسياسة والأيديولوجيا، وأصبحت العلمنة ظاهرة اجتماعية كاسحة، وتحولاً بنيوياً عميقاً يتجاوز عملية فصل الدين عن الدولة وعملية التنظيم الاجتماعي (الرأسمالي والاشتراكي)، ويتجاوز أية تعريفات مُعجمية وأية تصورات فكرية قاصرة محدودة»[2]. لكن ما يُسجَّل للمسيري في موسوعته حول العلمانية ذلك الجُهد المميز لتعريف المصطلح ووضعه في سياقه التاريخي ومتابعة نشوئه من تاريخ صُلح وستفاليا الذي أوقف الحروب الدينية في أوروبا عام (1648م) وتطوره لِيَسِمَ فصل الكنيسة عن الدولة، وتأصيله بتعريف مشهور واضح لجون هوليوك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على أنَّ العلمانية هي: الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية دون التصدِّي للإيمان، سواء بالقبول أو الرفض.

---

(1) العلمانية بين عبد الوهاب المسيرى وعادل ضاهر، أحمد فؤاد محمد، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

(2) العَلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر ـ 2002 ـ ص 19 ـ 20.

وهو ما يدفعنا إلى إشكالية أخرى من إشكاليات العلمانية ألا وهي تصوُّر العلمانية على أنها مجموعة من الأفكار والممارسات الواضحة، مما أدى إلى إهمال عمليات العلمنة الكامنة والبنيوية، السائدة دائماً. إنَّ العلمانية فكرة ثابتة ليس لها تاريخ، لكن هذا ليس حقيقياً بدليل أنها تتَّسع يوما بعد آخر وقد ساعد على هذا الاتساع فكرة النماذج الطبيعية / المادية، حيث يقول المسيري: «لا يمكن إنْ نُقلِّل من أهمية الأفكار والممارسات العلمانية الواضحة، فهى تُساعد ولا شك على تقبل الناس للمُثل العلمانية، وخصوصاً إذا أشْرفتْ على عملية نقل الأفكار وفرض الممارسات مؤسسة ضخمة مثل الدولة المركزية. ولكن تصور العلمانية باعتبارها مجموعة أفكار وممارسات واضحة يظل، مع هذا، تصوراً ساذجاً، ويُشكل اختزالا وتبسيطا لظاهرة العلمانية وتاريخها، وللظواهر الاجتماعية على وجه العموم»[1].

ويعرضُ المسيري بعض الأمثلة من توجيه المجتمع عن طريق العلمانية الشاملة، كالتحولات الاجتماعية فى الاتحاد السوفيتي، والأفكار التى تبدو محايدة وإن كانت تتضمن فى داخلها رُؤية علمانية معينة، وبعض المنتجات التي نتداولها يومياً فى حياتنا الاعتيادية، كل ذلك يظهر مدى التغلغل الحادث للعلمانية الشاملة على جميع المستويات الاجتماعية والفكرية. من ناحية أخرى فإنَّ نتيجة إخفاق علم الاجتماع الغربي فى تطوير نموذج مركب وشامل للعلمانية أدى فى نظر المسيري إلى تعدُّد المصطلحات التي تصف جوانب وتجليات مختلفة لنفس

(1) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر ـ 2002 ـ ص 21.

الظاهرة كإحدى الإشكاليات التي ساهمت بشكل أو آخر فى تقليص المساحة المأخوذة للعلمانية كمصطلح دلالي... ويوضح المسيري الحقل الدَّلالي للعلمانية في محاولة لتطوير النموذج التحليلي من خلال عرض اشكالية التباس الدَّلالات المختلفة للعلمانية، عارضاً فى المجلد الأول من كتابه لبعض التعريفات والمفاهيم للعلمانية بالتحليل ، سواء على مستوى الخطاب العربى أو المجتمع الغربي[1].

وبعد أن يذكر المسيري المعاني اللغوية المختلفة للفظ العلمانية في اللغات اليونانية واللاتينية يستنتج من ذلك أنَّ، كلمة سيكولوم اللاتينية تُؤكد البُعد الزماني، أما موندوس (العالم) فتؤكد البُعد المكاني[2].

أما من ناحية المفهوم، فنستطيع القول أن المسيري يرى أن المفهوم الغربي للعلمانية يتأرجح بين كون العلمانية مجرد كيان يقف دائماً وأبداً ضد المُقدس أو هو الغير مُقدس، وهو تعريف سلبي يضعُ العلمانية في إطار مُدنس، ويلاحظ عدم وجود أي مقالة مستقلة في الموسوعة البريطانية حول العلمانية، وهو يرجع ذلك إلى ظنِّ البعض أنَّ العلمانية قد استقر معناها وأصبحت مسألة بديهية[3].

وفى العالم العربي نجد الأمر ليس أحسن حالاً مما في الغرب بل هو أسوأ، فالخطاب العربي يتأرجح بين العلمانية الجزئية التى هى مُجرد

---

(1) العلمانية بين عبد الوهاب المسيرى وعادل ضاهر، أحمد فؤاد محمد، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

(2) المصدر السابق، نقلاً عن: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دكتور عبد الوهاب المسيري، المجلد الأول، دار الشروق ـ ص 53.

(3) العلمانية بين عبد الوهاب المسيرى وعادل ضاهر، أحمد فؤاد محمد، م.س.

فصل بين الدين والدولة، وبين العلمانية الشاملة بوصفها رؤية كلية عامة مادية للكون. وهناك مواقف للمفكرين العرب تقع بين الدائرتين الجزئية والشاملة، كما أن هناك مراجعات مُتعددة للمفهوم.

وقد ركَّز المسيري في دراسته للمجتمعات العلمانية على الإنسان ولكن ليس أيَّ إنسان، وإنَّما الإنسان ذو البُعد الواحد، فالعلمنة ليست مُجرد حركة تغريبية وحسب، وإنَّما محاولة للعولمة أو الأمْركة.

وانطلاقاً من الإشكاليات السابق ذكرها والتى أدَّت بشكل أو آخر إلى اختلال المفهوم الدلالي للعلمانية، فقد استدعى ذلك منا الوقوف على التعريف الذي يقدمه للعلمانية مع الإشارة إلى مُتتاليتها النموذجية، فقد تناول تعريف العلمانية ومُتتاليتها وتحقُّق تلك المتتاليات في الواقع، وأفرد الحديث عن العلمانية الشاملة باعتبارها النموذج التفسيري الكلي والنهائي في ذلك الوقت، فقد أصبحت العلمانية فيما يرى المسيري مُتصلاً من المدلولات في أقصى طرفيه ما يُسميه «العلمانية الجزئية» وفي الطَّرف الآخر «العلمانية الشاملة» وتتمازج المدلولات فيما بينها. فالعلمانية فى صُورتها التقليدية ما هي إلا رُؤية ذات طابع جزئي للواقع، تذهب للقول بفصل الدين عن الدولة وهو الرأي الأكثر شُيوعاً وهي في الوقت نفسه لا تُنكر المطلقات والكليات، ونظرتها للإنسان أنه إنسان طبيعي / مادي، بينما الصورة الأحدث التى يرصدها المسيري هي العلمانية الشاملة ويُقدمها لنا باعتبارها نموذجاً تفسيرياً ذا طابع كُلي ونهائي للواقع وتحاول في الوقت نفسه إيجاد العلاقة بين كل مجالات الحياة[1].

(1) العلمانية بين عبد الوهاب المسيرى وعادل ضاهر، أحمد فؤاد محمد، م.س.

ويستمرُّ المسيري في عرضه للعلمانية الشاملة، التي ترتكز على مبدأين هما: المرجعية الكامنة والواحدية المادية، ويُضيف المسيري: إنَّ نظرتها للإنسان أنه ذو علاقة قوية تبادلية مع الطبيعة، عكس تلك الواحدية الموجودة في العلمانية الجزئية ونظرتها للإنسان، فالعلمانية الشاملة ليست مجرد فصل الدين عن الدولة، بل هي فصل كل القيم سواء الدينية أو الأخلاقية وغيرها عن العالم الذي يرى أن «الفرق بين ما نُسمِّيه (العلمانية الجزئية) وما نُسمِّيه (العلمانية الشاملة) هو في واقع الأمر الفرق بين مراحل تاريخية لنموذج واحد، فالعلمانية ظاهرة لها تاريخ، تظهر من خلال حلقات متتابعة»[1]، كما أن العلمانية الشاملة ليست إلاَّ نماذج مُتتالية تراكمية، وليست كما ذهب البعض مُجرد مجموعة من الأفكار الثابتة.

(1) العلمانية بين عبد الوهاب المسيري وعادل ضاهر، أحمد فؤاد محمد، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ 14 ـ 16 فبراير 2007 ـ نقلاً عن: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دكتور عبد الوهاب المسيري، المجلد الأول، م.س.

الفصل الثاني

عبد الوهاب المسيري في سياق الفكر الإسلامي

من الدراسات المتميزة التي تستحقُّ الإشارة والإشادة بها التي تناولت المشروع الفكري للدكتور عبد الوهاب المسيري دراسة «التوحيد: كيف ينسج خيوط كتابات عبد الوهاب المسيري؟» للدكتور عبد القادر مرزاق[1]، وفيها يحاول الكشف عن كيفية بناء مفهوم التوحيد في مشروع عبد الوهاب المسيري، وهو لا يضع هذا المشروع الفكري في السياق التاريخي لعلم الكلام الإسلامي التقليدي، لأنَّ كتابات هذا العلم حسب الدكتور مرزاق «اختطَّت لنفسها نهجاً جدالياً؛ فيه كثير من التجريد الذي تعرض للذات والصفات الإلهية؛ حتى أنها قد أفقدت ـ في ما نحسب ـ هذا الركن الأصل في كل تصور ديني سليم؛ أفقدته رُواءه، وجاذبيته التي يقدمها لنا المنهج القرآني في أبهى صورة وأكملها؛ تلامس شغاف القلب، فلا يكون من المتلقي إلا الاستجابة إنْ هو ألقى السَّمع وهو شهيد[2]».

---

(1) ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

(2) التوحيد: كيف ينسج خيوط كتابات عبد الوهاب المسيري؟، دكتور عبد القادر مرزاق، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

ولعلَّ هؤلاء كانوا في ذلك مدفوعين بروح الجدل الناشئ، والردود المُفتعلة التي استغرقتهم في ما صاغوه من نظر، قد يكون مُمتعا في شحذ طريقة البناء في الكلام وبالكلام، لكنه أنساهم، لا محالة، روح التوحيد القرآني الذي تحصُلُ به حالة من مقام العلم، ليست كافية حتى يصاحبها مقام الحال والاتصاف؛ بلغة ابن خلدون. إنَّ مشكلة التوحيد في المعرفة البشرية هي العلَّة الكامنة وراء كل الانحرافات التي تجلَّت في العنف والتسلط والفرعونية، والتألُّه في الأرض؛ متى تاهت هذه المعرفة عن ضبط العلاقة الثُّلاثية الأطراف، وهي مصدر كل الاستقامة التي تجلت في الرحمة والتسامح والمشاركة الإنسانية والاستخلاف؛ متى ضُبطت تلك العلاقة وفق ما يقتضيه كل رُكن من أركانها[1].

وبعد أن يستعرض الدكتور عبد القادر مرزاق حالة العجز التام عن استيعاب «الإله» في الفكر الفلسفي المعاصر، بسبب جذوره الغربية، يتساءل: كيف استطاع المسيري أن يجعل التوحيد يُشكل نسيج بنائه الفكري؟ بعيداً عن الكلامية التقليدية، وعن «منظومات» كُتب العقيدة الجافة، وعن زاعمي حلول مركزية الإنسان محلَّ مركزية الله من كثير من مُتنطعي الحداثة وما بعدها؟؟.

ويرسم الدكتور عبد القادر مرزاق صورة متكاملة لهذا الإنجاز المعرفي، فيشير أولا إلى: ثنائية الله والإنسان: كمحور رئيس لمسار المسيري الفكري: فهو دائما ينصُّ في مشروعه على مركزية طرفي الثنائية، دون أن يبخس أيّاً منهما حقه، فهو ينقض التفسيرات المادية

(1) التوحيد: كيف ينسج خيوط كتابات عبد الوهاب المسيري؟، دكتور عبد القادر مرزاق، م.س.

الواحدية التي تُؤْثر البساطة والواحدية على التركيب والتعددية، ويتلمس معالمها على مدى الفكر البشري؛ في متابعة موسوعية؛ تدرك مواطن العلة، وتبحث دوماً وأبداً عن النَّاظم، عن الكامن الكلي الذي يحرك المتعدد؛ بدءاً من الغنوصية، والقبالة، والفلسفات الوثنية عبر التاريخ، ووصولا إلى الحداثة، وما بعدها، والعولمة، وثقافة الهمبرغر، والفيديو كليب. . .

فهو يذهب «إلى أن ثمة نموذجا معرفيا كامناً وراء كل قول أو ظاهرة إنسانية. وهذا النموذج هو مصدر الوحدة وراء التنوع، وهو الذي يربط بين كل التفاصيل، فتكتسب معنى ودلالة وتصبح جزءاً من كُل، وليس مجرد معلومة جديدة أوطرفة فريدة. والنموذج هو تجلٍّ متعين لرؤية الإنسان للكون، التي تدور حول محاور ثلاثة: الإله ـ الإنسان ـ الطبيعة»[1]، وما دام أي نموذج (أو رؤية للكون) يدور حول المحاور الثلاثة، فهي «محاور مترابطة إلى درجة أنه يمكن استخلاص موقف النموذج من الطبيعة والإنسان من خلال دراسة موقفه من الإله، و يمكن استخلاص موقفه من الإنسان والإله من خلال دراسة موقفه من الطبيعة، وهكذا[2]».

لهذا السَّبب يرى الدكتور المسيري أنه بدلاً من تصفية الثنائية؛ ف «قد يكون من الأمانة أن نستدعي ثنائية أخرى ذات مقدرة تفسيرية عالية لا يمكن تصفيتها. وبدلا من استخدام مقولات مادية تفسيرية وحسب؛

---

(1) دكتور عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجودة، دار الشروق، مصر ـ ط1 ـ 2002 ـ ص 5.

(2) دكتور عبد الوهاب المسيري، الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، القاهرة ـ ط2 ـ 2002 ـ ص 53 ـ 54.

تفرض الواحدية على الواقع وتُسوي الإنسان بالطبيعة، يُمكن استخدام مقولات غير مادية، ويمكن استدعاء مدلول متجاوز للنظام الطبيعي ولقوانين المادة نُصنف تحته كل الظواهر التي لاتخضع للقياس، ونُفسِّر به كل ما لا يدخل شبكة السببية الصَّلبة، وندرك من خلاله كل التجليات التي تظهر في عالمنا الطبيعي دون أن يمكننا تفسيرها في جميع جوانبها، أي نستدعي مقولة تُكمل ولا (تجب) المقولات غير المادية. وهذه المقولة هي ما يُطلق عليه المسلمون الله»[1].

إنَّ هذه الثنائية الفضفاضة التكاملية، كما يُسميها المسيري التي تَسِمُ الوجود الإنساني؛ هي غير الإثنينية التي هي ثنائية صلبة تفترض تساوي عنصرين تساوياً كاملاً؛ ومن ثم دخولهما في حالة صراع، وهي في مقابل الواحدية المادية؛ بمعنى أن الطرفين فيها مُختلفان. وبعد التعرض لتحديد مفهوم المرجعية بأنها الفكرة الجوهرية التي تُشكل أساس الأفكار في نموذج معين، والركيزة النهائية الثابتة له، لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها، والمبدأ الواحد الذي تُرد إليه كل الأشياء، وتُنسب إليه، ولا يُرد هو أو ينسب إليها؛ بعد هذا التحديد؛ يصوغ المسيري مفهوم الأُولى بأنَّها هي الله، في النُّظم التوحيدية، «الواحد المنزَّه عن الطبيعة والتاريخ، الذي يحركهما ولا يحل فيهما. ووجوده هو ضمان أن

(1) التوحيد: كيف ينسج خيوط كتابات عبد الوهاب المسيري؟، دكتور عبد القادر مرزاق، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ 14 ـ 16 فبراير 2007 ـ نقلاً عن: إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المقدمة: فقه التحيز، تحرير: دكتور عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية ـ 9 ـ ط 3 ـ 1998 ـ ص109 ـ 110.

المسافة التي تفصل الإنسان عن الطبيعة لن تُختزل ولن تُلغى. فالإنسان قد خلقه الله، ونفخ فيه من روحه، وكرَّمه، واستأمنه على العالم، واستخلفه، أي أن الإنسان أصبح في مركز الكون بعد أن حمل عبء الأمانة والاستخلاف[1]».

ويُسفر هذا عن صفات توحيدية لله تعالى؛ فهو الواحد، المنزَّه، الخالق، المكرِّم، المستخلف (بكسر اللام)؛ صفات تشمل: الخلق، والأمر، بلغة القرآن؛ وفي الرؤية التوحيدية الله هو: «مصدر تماسك العالم ووحدته وحركته وغايته، هو «الإله»، خالق الإنسان و الطبيعة و التاريخ، وهو الذي يحركهم ويُزوِّدهم بالغاية ويُضفي المعنى على الوجود. ولكنه مع هذا مفارق لمخلوقاته جميعا.. لا يحل في أي منها، ولا يتوحد معها. وهو ما يعني أن النُّظم التوحيدية تولِّد ثنائية أساسية، تبدأ بثنائية الخالق والمخلوق، التي يتردد صداها في ثنائية الإنسان والطبيعة ثم في كل الثنائيات الأخرى في الكون. وبذلك لا تسقط العقائد التوحيدية في الواحدية»، والله، تنويعا على السابق، ومُضافاً إليه؛ خلق العالم، ونفخ فيه من روحه، ولم يهجره، بل دخل في علاقة معه؛ فهو يرعاه، ومنه يستمد هذا الإنسان كل معاني وجوده الاستخلافية التي تحول دون أن يصير دُمية بين يدي أي تصور يطوّح به من بُرج الاستخلاف الذي أريدَ له، إلى حضيض السوائم التي يشترك معها في الإدراك؛ وهو شعور المدرك في ذاته مما هو خارج ذاته، ويزيد عنها أنه يدرك الخارج عن ذاته، الفكر الذي وراء حسه، وذلك

(1) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دكتور عبد الوهاب المسيري، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ 2002 ـ ص 37.

بقوى جُعلت له في دماغه، ينتزع بها صور المحسوسات، ويجول بذهنه فيها، فيجرد منها صورا أخرى، والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب. ويستمد من هذا المدلول المتجاوِز (المفارق)؛ لأنه «الطريق الوحيدة لكي نخرج من عالم الحس والكُمون والصيرورة، ونضع حداً للعب الدُّول إلى ما لا نهاية، ونحقق التجاوز والثبات، ونؤسس منظومات فلسفية ومعرفية وأخلاقية»[1].

وفي عالم المسيري الفكري هناك، إلى جانب التأكيد على الحضور الدائم للإله، الكشف عن «الإنسان الرباني» بِلُغة المسيري نفسه، وهو الطرف الثاني المهم في الثنائية الكبرى التي تؤول إليها كل الثنائيات في الكون، ولا يمكن اختزالها، أو تصفيتها. إنَّه الإنسان المخلوق لله، وليس الإنسان الداروينيّ؛ وانطلاقاً من هذا الإنسان؛ عرّف المسيري التوحيد، عرف الله؛ إذ الفضل في انتقاله الحاسم من عالم المادية الضَّيق، إلى عالم أكثر رحابة، هو تبلور النموذج الكامن في وجدانه، وتحوله إلى النموذج الحاكم. هذا التبلور للنموذج الكامن بداخله إذاً؛ هو ما دفعه إلى أن يُقرر بصريح العبارة: «إذا كان اكتشافي للشر في النفس الإنسانية ومحاولة تفسيره قد قادني بعيداً عن الإيمان، فإنَّ اكتشافي للخير في النفس الإنسانية عاد بي إلى عالم الإنسانية والإيمان». ويصف المسيري ذلك قائلاً: «هكذا، بدلا من الوصول إلى الإنسان من

---

(1) التوحيد: كيف ينسج خيوط كتابات عبد الوهاب المسيري؟، دكتور عبد القادر مرزاق، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

خلال الله، وصلت إلى الله من خلال الإنسان، ولا يزال هذا هو أساس إيماني الديني، وهو ما أُسمّيه «الإنسانية الإسلامية»[1].

ويتّسم هذا الإنسان، تأسيساً على ما سبق، بأنه الكائن الوحيد الذي يطرح تساؤلات عما يُسمى العلل الأولى: من أين جئنا؟ وأين سينتهي بنا المطاف؟ وما الهدف من وجودنا؟. وهو لا يكتفي أبدا بما هو كائن، وبما هو مُعطى، ولا يرضى بسطح الأشياء؛ فهو دائب النظر والتدبر والبحث، يغوص وراء الظواهر ليصل للمعاني الكلية الكامنة وراءها والتي ينسبها إليها، وهو الكائن الوحيد الذي يبحث عن الغرض من وجوده في الكون، وهذه كلها تساؤلات تجد أصلها في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري(النزعة الربانية). إنَّ الإنسان، بسبب نزعته الربانية تلك، في مقابل النزعة الجنينية؛ المصطلح الذي سكَّه المسيري ليعبِّر به، بتركيز شديد، عن أنها نزعة للهروب من الحيز الإنساني المركب، إلى عالم واحدي أَمْلس بلا حدود، أقول إنه بنزعته تلك؛ يرى المسيري أنه ينزع نحو تجاوز الطبيعة/ المادة، ويتقبل الحدود والمسؤولية وعِبْء الوعي، ويُؤكد الهوية الإنسانية وتركيبيتها. والنزعة الربانية، فضلا عن ذلك، هي حسب المسيري: «تعبير عن أنه يوجد داخل الإنسان عنصر غير مادي غير طبيعي لا يمكن ردُّه إلى الطبيعة/ المادة، نسميه «القبس الإلهي»، وهو ذلك النور الذي يبثه الإله الواحد المتجاوز في صدور الناس (بل في الكون بأسره)، فيمنحه تركيبيته اللامتناهية، ويولد في الإنسان العقل الذي يدرك من خلاله أنه ليس إلهاً، وأنه ليس الكل، وأنه مكلف بحمل الأمانة، وأن عليه أعباء أخلاقية

(1) المصدر السابق.

وإنسانية تُشكل حدوداً وإطاراً له. ولكن هذه الحدود هي نفسها التي تميزه؛ فهي تفصله عن كلّ من الإله، والكائنات الطبيعية، وتميزه عن هذه الكائنات بعقله ووعيه والمسؤولية المنوطة به. فكأن الحدود هي حيِّزه الإنساني الذي يمكن له أن يحقق فيه إمكانياته أو يُجهضها. وهو الحيز الذي يتحول فيه الإنسان إلى كائن اجتماعي قادر على أن يُرجئ رغباته، ويُعلي غرائزه، ولا يطلق لشهواته العنان، حتى يمكنه أن يعيش مع الآخرين ويتواصل معهم، وأن ينتج أشكالا حضارية إنسانية تتجاوز عالم الطبيعة/ المادة، وعالم المثيرات والاستجابات العصبية والجسدية المثارة»[1].

وقد وُصف الإنسان بمجموعة مظاهر تميزه؛ منها أنه يعبر عن نفسه من خلال النشاط الحضاري (الاجتماع الإنساني، والحس الخُلقي، والحس والجمالي، والحس الديني). إنَّه «كائن صاحب إرادة حُرة برغم الحدود الطبيعية والتاريخية التي تحده. وهو كائن واع بذاته وبالكون، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية/ المادية وعالم الطبيعة/ المادة. وهو عاقل قادر على استخدام عقله، ولذا فهو قادر على إعادة صياغة نفسه وبيئته حسب رؤيته. والحرية قائمة في نسيج الوجود البشيري ذاته، فالإنسان له تاريخ يروي تجاوزه لذاته (وتعثُّره وفشله في محاولاته)، وهو تعبير عن إثباته لحريته وفعله في الزمان والمكان. والإنسان قادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي/ المادي الذي يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه، وهو قادر على الالتزام بها وقادر أيضا

(1) التوحيد: كيف ينسج خيوط كتابات عبد الوهاب المسيري؟، دكتور عبد القادر مرزاق، م. س.

على خرقها، وهو الكائن الوحيد الذي طوَّر نسقاً من المعاني الداخلية والرموز التي يدركها من خلال الواقع. وهو النوع الذي له ذاكرة قوية ونظام رمزي أصبحا جزءاً أساسياً من كيانه حتى إنه يمكن القول بأنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يستجيب مباشرة للمثيرات، وإنَّما يستجيب لإدراكه لهذه المثيرات وما يُسقطه عليها من رموز وذكريات». هو ذا الإنسان الموحِّد، الإنسان ذو القيم، الإنسان المكرَّم، المجتهد؛ ذو العلم الفضفاض النماذج، واليقين غير الكامل، الإنسان ذو العقل المحدود، والفعال؛ فهو محدود: لا يحيطُ بكل شيء، وفعال: لا ينسخ كل شيء، ويتكئ على نماذج معرفية يصفها بأنها؛ أقل تفسيرية، وأكثر تفسيرية، بدلاً من أنها موضوعية، أو ذاتية، وهو كغيره من مخلوقات الله يحوي عنصراً من الغيب في تركيبته، والغيب هنا هو غير المادي، الذي لا يُقاس. و«يحوي غيباً»؛ معناه أنه يحوي، في المنظومة التوحيدية التي نحاول تجلية بعض عناصرها من خلال مشروع المسيري، داخله قبساً إلهياً. وهو قد يشارك في بعض سمات النظام الطبيعي، وقد تسري قوانين الطبيعة وقوانين الأشياء على بعض جوانب وجوده؛ فهو يُولد، ويأكل، ويمشي، ويضاجع النساء، ويمرض، ويموت، ولكنه لا يُرد في كليته إليها[1].

وفي نموذجنا التوحيدي، البديل للفلسفات الغنوصية الحلولية التي تُشبه في النظرة التحكُّمية، العلم الحديث بنزعته الفاوستية للتحكم في

(1) التوحيد: كيف ينسج خيوط كتابات عبد الوهاب المسيري؟، دكتور عبد القادر مرزاق، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

العالم من خلال الصيغ الدقيقة، وهو يقدم ميتافيزيقا ضرورة التحكم دون أي أعباء أخلاقية؛ في هذا النموذج، قد نعرف هذا الجانب أو ذاك من وجود الإنسان، ولكن تظل هناك جوانب (ربانية) مجهولة لا يمكن معرفتها أو إخضاعها للقانون المادي العام الواحد. ولذا، يظل هناك قانونان: واحد للإنسان، والآخر للأشياء. وتنبع بعض جوانب فكر الإنسان من واقعه (المادي الطبيعي أو الإنساني)، ولكنه لا يمكن أن يُرد في كُليته إليه؛ لأن بعض هذا الفكر نابع من ذاته (الربانية الإنسانية غير الطبيعية) المتجاوزة لذاته المادية و الطبيعية؛ أي أن الإنسان جزء يتجزأ من الطبيعة متجاوز لها. ولكل هذا، يشكل الإنسان ثغرة في النظام الطبيعي/ المادي، فهو كائن قادر على تجاوز الجوانب الطبيعية/ المادية في ذاته، وقادر على تجاوز الطبيعة/ المادة ذاتها. وهي مسافة لا يمكن أن تُسدَّ تماماً (مثل المسافة التي تفصل الخالق عن المخلوق)، فالجانب الرباني في الإنسان لصيق تماماً بإنسانيته[1].

وفي سياق التأثير المتبادل بين رُؤيته الفكرية ومشروعه النقدي، يطرح المسيري تصوراً لدور المجاز اللغوي كأداة لتقريب المسافة بين الدَّال/ الخالق والمدلول/ المخلوق، فهو يعتبر أن المجاز اللغوي أداة الإنسان للتعبير عن أفكار ورؤى مركبة لا يمكن التعبير عنها إلا بهذه الطريقة، وإذا أرادت اللغة التعبير عن فكرة «الله» و«الغيب»، فإنَّ المسافة تتَّسع وتتَّسع. والمسافة ـ في تصوره ـ لا يمكن عبورها، ولكن يمكن تقريبها وتحويلها إلى مجال للتفاعل عن طريق المجاز. هذه الوظيفة التي يقوم بها المجاز تتمُّ من خلال ما يقوم به من توسيع من نطاق اللغة

(1) المصدر نفسه.

الإنسانية، وجعلها أكثر مقدرة على التعبير عن الإنساني المركب واللامحدود. هذه الأدوار المُوكلة إلى المجاز تتمُّ عادة ـ كما يقول المسيري ـ عن طريق ربط المجهول بالمعلوم، والإنساني بالطبيعي، والمعنوي بالمادي، واللامحدود بالمحدود، وهو ربط لا ينجم عنه مزجٌ عضوي بينهما وإنَّما تحويل الواحد منهما إلى طريقة لاستكشاف الآخر، إذ تظل المسافة بينهما قائمة رغم عملية الربط بينهما[1].

بل إنَّ المسيري يرى أنَّ التوحيد ـ ومفهوم المسافة وفلسفة التجاوز ـ يُعتبر المعيار الأساسي الذي تحكَّم في مسار الحضارة الإسلامية، وبدون استحضار هذا البُعد التوحيدي لا يمكن فهم جملة من القضايا وطائفة من الإشكالات التي ميَّزت مسار هذه الحضارة عن غيرها من المسارات الحضارية الأخرى. ولقد كان المعيار التوحيدي المحدد، الأساس لمقاربة أعقد المسائل الفكرية والأسئلة الفلسفية التي فرضت نفسها بقوة على حضاراتنا ومجتمعاتنا.. وفي هذا السياق يذكِّرنا المسيري بأن مشكلة «المسافة والتجاوز وعلاقة الدَّال بالمدلول» تبدَّت في التراث الإسلامي في مسألة كلام الله.. أهو مُحدث ومخلوق أم قديم؟ ويذكر المسيري أن المعتزلة عندما قالوا إنَّ القرآن (كلام الله) مُحدث ومخلوقٌ كان دافعهم إلى ذلك رفضهم لأي شبهة توحي بتعدد القدماء، وتمسكهم بالتوحيد وفكرة الإله المتجاوز للطبيعة والمفارق للعالم.

---

(1) في الإضافات «المسيرية» النوعية: للمشروع العربي الإسلامي، جواد الشقوري، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ القاهرة ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

والسبب المركزي ـ في رأي المسيري ـ الذي قاد المعتزلة على الاجتهاد والجد في هذه المسألة كان راجعا بالأساس إلى كَوْن هذه القضية بمثابة الباب الذي دخل منه «التثليث» فأفسد توحيد المسيحية الأولى. ولتوضيح هذا «الدافع المعتزلي» قام المسيري بتوليد معاني فلسفية تصورية ذات دلالة عميقة، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران 45]، يقول المسيري في هذا الصدد: إنَّ القرآن يُقر أنَّ عيسى (عليه السلام) هو كلمة الله.. ثم يُضيف: فلو أن «كلمة الله»، وبالتالي «كلامه» ـ ومنه القرآن ـ وُصف بالقِدَم لتعدَّد القدماء ولصحَّت عقيدة التثليث المسيحية! ويستنتج المسيري من ذلك أن الدَّال والمدلول لا ينفصلان في كلام الله، وأن الانفصال يَحدُث فقط في حالة تنزيل القرآن.[1]

(1) في الإضافات «المسيرية» النوعية: للمشروع العربي الإسلامي، جواد الشقوري، ورقة مقدمة إلى: ندوة الرؤية والمنهج في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري، جامعة القاهرة ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات ـ القاهرة ـ 14 ـ 16 فبراير 2007.

الفصل الثالث

مؤلفات الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري

أولا: كتب منشورة بالعربية

(1) نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني

الناشر: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة؛ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت القاهرة 1972م - بيروت 1979م.

تعريف: دراسة في فلسفة التاريخ الصهيوني، تذهب إلى أن الفلسفات الفاشيَّة تُحاول دائماً أن تضع نهايةً للتاريخ (الزمان والمكان) لتبدأ من نقطة الصِّفر. وهذا ما يصنعه الصهاينة بالنسبة لكلٍّ من الفلسطينيين ويهود العالم، إذ تتحول فلسطين العربية إلى إرتس يسرائيل أو صهيون، أي «أرض بلا شعب»، أما يهود العالم، فهم أشخاص مُقتلعون لا وطن لهم، فهم «شعب بلا أرض»، ويتوقف تاريخ فلسطين (التي تنتظر أصحابها الأصليين، أي اليهود)، كما يتوقف تاريخ يهود العالم (الذين يعيشون في «المنفى»، ويتُوقون للعودة لوطنهم القومي الأصلي!). وحين يضع الصهاينة نهاية للتاريخ فهم لا يختلفون كثيراً في

هذا عن النازيين الذين أوقفوا تاريخ كل العناصر التي قرروا أنها تَعوق تطور الشعب العُضوي (الفولك).

ومن أهم فصول هذا الكتاب الفصل الأول الذي يتناول قضية حُلول الإله في التاريخ. ويَظهر نموذج الحلولية باعتباره النموذج التحليلي الأساسي في كتابات الدكتور المسيري. والحلولية ـ كما يعرِّفها المسيري ـ هي إلغاء المسافة بين الخالق والمخلوق بحيث يُصبحان جوهراً واحداً، ومن ثَمَّ يستحيل التجاوز، وتسود الحتميات، وتُصفَّى الثنائيات، وتصبح الظواهر ذاتَ بُعد واحد.. وفي كلمةٍ: تسود الواحدية (الروحية والمادية) بدلاً من الثنائية والجدل والتدافع.

(2) الأقليات اليهودية بين التجارة والادعاء القومي

الناشر: معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1975م.

تعريف: ينقسمُ هذا الكتاب إلى جزأين رئيسيين: أحدهما يُعالج تاريخ اليهود في أوروبا، والآخر يبحث في الادعاءات القومية الصهيونية. ورغم انفصال الموضوعين، وإعدادهما كدراستين منفصلتين، إلا أن ثمة ارتباطاً بينهما، فوضع الجماعات اليهودية وعلاقتها الخاصة بمسار التاريخ الأوروبي هما اللذان أدَّيا في نهاية الأمر إلى ظهور الادعاءات القومية الصهيونية.

(3) موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤيةٌ نقدية:

الناشر: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة 1975م.

تعريف: هذا العمل بداية الجهد الموسوعي للمسيري، إذ اكتشف

ما سمَّاه «جيتوية المصطلح الصهيوني»، وهي أن كل المصطلحات ـ بل المفردات ـ التي ترد في الكتابات الصهيونية لها معنى محدد يختلف عن معناه في النصوص الأخرى. فـ «الحزب السياسي» في الكيان الصهيوني يختلف عن «الحزب السياسي» في الدول غير الاستيطانية في بنيته ومفهومه، وكلمة «الشعب» كما ترد في المعاجم السياسية يختلف معناها عن معنى كلمة «الشعب» كما ترد في المعجم الصهيوني. وهذه الموسوعة محاولةٌ أوَّلية لحصر المصطلحات والمفردات والمفاهيم الصهيونية وتحديد معناها ومضمونها واسترجاع البُعد العربي/ النقدي لها.

وتقوم الموسوعة بتقديم تعريف مُستفيض لمعظم المصطلحات الصهيونية الشائعة حتى تاريخ صدورها، ابتداءً بـ «الصهيونية العُمالية»، على سبيل المثال، وانتهاءً بـ «الكيبوتس». وقد بدأ الدكتور المسيري في كتابة «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» عام 1976م، كمحاولة لتحديث «موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية».

(4) اليهودية والصهيونية وإسرائيل: دراسةٌ في انتشار وانحسار الرؤية الصهيونية للواقع

الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1976م.

تعريف: هذا الكتاب محاولة لدراسة بعض الجوانب اللاعقلانية في الصهيونية وعلاقتها بالفلسفات المختلفة في أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر. كما يتناول الكتاب بعض الاتجاهات اليهودية المتحفظة على الصهيونية (لا الرافضة لها). ومن أهم الدراسات التي يضمها هذا الكتاب: دراسة في أسطورة ماسادا: أسطورة الانتحار الصهيونية،

والحسيدية، وفكر ناحوم جولدمان (صهيونية الدياسبورا) وأوري أفنيري (القومية الإسرائيلية والفكر الكنعاني).

(5) الفِرْدَوس الأرضي: دراساتٌ وانطباعات عن الحضارة الأمريكية:

الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979م.

تعريف: دراسة في الحضارة الأمريكية، هي في واقع الأمر دراسة في الحداثة الغربية ومفهوم التقدم واليوتوبيا التكنولوجية. وترى الدراسة أن الإنسان الأمريكي إنسان مادي ـ بالمعنى الفلسفي ـ يحلم بأن يؤسس فِرْدَوساً أرضياً بحيث يتحكم في كل جوانب حياته الأرضية أو الزمنية، ولكن ينتهي به الأمر إلى أن يعيش في الجحيم، لأنَّ من يحاول التحكم في كل جوانب الواقع هو إنسان إمبريالي يحاول أن يتألَّه. ولأن هذا مستحيل ـ حيث أن الواقع دائماً أكثر ثراءً وتركيباً من تصورنا له ـ فمثل هذا الإنسان يحكم على نفسه بالتعاسة والبؤس الشديدين. ويضمُّ الكتاب دراسة في التشابه بين الوجدان الأمريكي والوجدان الصهيوني، وأخرى في حياة الزعيم الأمريكي الأسود الحاج مالك الشباز (مالكولم إكس). كما يضمُّ الكتاب دراسات مُطولة عن حركة تحرير المرأة، التي تنبأ المسيري آنذاك أنها ستكتسب مركزية متزايدة في حياة الإنسان الغربي.

(6) العُنصرية الصهيونية:

الناشر: وزارة الثقافة والفنون، العراق 1979م.

تعريف: يبيِّن هذا الكُتيب أن العنصرية الصهيونية ليست انحرافاً عن الرؤية الصهيونية، وإنَّما هي نتيجة حتمية لمنطلقاتها الإقصائية. ويدرس الكُتيب التبدِّيات المختلفة لهذه الرؤية.

(7) مختاراتٌ من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي: النصوص الأساسية، وبعض الدراسات التاريخية والنقدية

الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979م.

تعريف: هذا الكتاب محاولة من جانب المسيري لتقديم النصوص الأساسية للحركة الرومانتيكية في الشعر الإنجليزي حتى يمكّن القارئ العربي الذي لا يعرف الإنجليزية أن يُلمَّ إلماماً تامّاً بها، وذلك نظراً إلى مدى تأثير الحركة الرومانتيكية في الأدب العربي في الثلاثينيات. وكان الدكتور المسيري قد قام بترجمة بعض النصوص الأساسية في كتاب بعنوان (الرومانتيكية في الأدب الإنجليزي) نُشر في القاهرة عام 1965م في سلسلة الألف كتاب. ويقدم المسيري في كتابه هذا منهجاً لترجمة النصوص الشعرية، كما يضم تعليقاً نقدياً على كل القصائد، كل قصيدة على حِدَة. وهو يستخدم في هذا التعليق نموذج الحلولية والتجاوز، والصراع داخل الذات الإنسانية بين النزعة الإنسانية (الرَّبانية) نحو التجاوز من جهة، والنزعة الجنينية/ الطبيعية (نسبة إلى الجنين) نحو التوحد مع عالم الطبيعة/ المادة والذوبان فيها من جهة أخرى. وهو في تحليله يستخدم تاريخ الأفكار مدخلاً إلى فهم شكل العمل الفني وبنيته. اشترك في ترجمة النصوص الإنجليزية الأستاذ علي زيد، أما التعليقات النقدية على القصائد فقد كتبها الدكتور المسيري.

(8) إسرائيل وجنوب أفريقيا: بالاشتراك

الناشر: سلسلة كُتب مترجمة رقم 427، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، بلا تاريخ.

تعريف: هو ترجمة لكتاب Israel and South Africa. الذي كتبه المسيري بالإنجليزية [بالاشتراك] ونشر في الولايات المتحدة.

(9) الغرب والعالم The West and the World: (تأليف كافين رايلي) [ترجمة بالاشتراك]

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت 1985م، جزآن.

تعريف: كافين رايلي، مؤرخ أمريكي معاصر يهتم بتاريخ الأفكار وعلم اجتماع المعرفة، وهو صديق للدكتور عبد الوهاب المسيري وزوجته، الدكتورة هدى حجازي، اللذين قاما بترجمة الكتاب إلى العربية. والكتاب يتناول تاريخ الحضارة من خلال موضوعاتٍ (لا من خلال السَّرد التاريخي المألوف)، ومن خلال رؤية مركبة لا تَرُدُّ عالم التاريخ والإنسان إلى عالم المادة والطبيعة، ولا تعطي للحضارة الغربية أيةَ مركزية، وإنَّما تقدم رؤية عالمية حقة، يتنقل صاحبها بسهولة ويسر من المدينة إلى القرية، ومن الحاضر إلى المستقبل، ومن عالم الآلة إلى عالم الفن.

*** (10) أرض الميعاد: دراسةٌ نقديةٌ للصهيونية السياسية**

الناشر: الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ـ سلسلة كُتب مترجمة رقم 247 ـ 1980م.

تعريف: هو ترجمة لكتاب The Land of Promise الذي كتبه المسيري بالإنجليزية ونشر في الولايات المتحدة. والترجمة الصحيحة للعنوان هي أرض الوعد.

(11) الأيديولوجية الصهيونية: دراسةُ حالةٍ في علم اجتماع المعرفة

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت 1981م ـ جزآن ـ طبعة ثانية في جزء واحد 1988م.

تعريف: أول دراسة متكاملة باللغة العربية عن الأيديولوجية الصهيونية، وهي تضم خلاصة ما توصَّل إليه الكاتب في دراساته السابقة. تذهب هذه الدراسة إلى أن الأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية عُنصرية معادية لكلٍّ من العرب واليهود، وأنها نمط من الاستعمار الاستيطاني الإحلالي. والكتاب يضم عدة فصول من أهمها الفصول التي تتناول الخلفية الفكرية للصهيونية وعلاقتها بالنازية.

(12) الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسةٌ في الإدراك والكرامة

الناشر: منظمة التحرير الفلسطينية، تونس 1987م ـ طبعة خاصة، القاهرة 1988م.

تعريف: كان الدكتور المسيري قد كتب مقالاً بعنوان: «إلقاء الحجارة في الضِّفة الغربية» (أبريل 1984م، الرياض) تنبأ فيه بوقوع الانتفاضة الفلسطينية قبل وقوعها بأربعة أعوام تقريباً، كما تنبأ أن سلاحها الأساسي سيكون الحجارة. وحين اندلعت الانتفاضة بالفعل كتب هذه الدراسة التي يُحلل فيها النموذج الانتفاضي باعتباره نموذج التكامل غير العضوي (نموذج مركزه ضعيف وأطرافه قوية). وقد درس فيها الجوانب المختلفة للانتفاضة، مركِّزاً على معنى الامتلاء الفلسطيني مقابل أزمة المجتمع الصهيوني (طوَّر المسيري هذه الرؤية في مدخل مستقل في المجلد الأول من موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية بعنوان «نموذج التكامل غير العضوي»).

(13) افتتاحيات الهادئ Pacific Overtures: تأليف ستيفن سوندايم وجون ويدمان [ترجمة بالاشتراك]

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة المسرح العالمي، الكويت ـ 1988م.

تعريف: مسرحية موسيقية غنائية موضوعها تحديث اليابان. وتتناول المسرحية اليابان القديمة في أيام حُكم الشوجن «الإقطاع العسكري» (جميلةً وغيرَ حقيقية)، واليابان الحديثة (جديدةً وثريةً.. وملوَّثة أيضاً). واستخدم الكاتب الأنواع الأدبية المسرحية والشعرية اليابانية المختلفة (النو ـ الكابوكي ـ الهايكو) في تقديم رؤيته المسرحية. وقد كتب الدكتور المسيري مقدمة طويلة تناول فيها الأنواع الأدبية اليابانية، كما تناول قضية تحديث اليابان وحسابات المكسب والخسارة الناجمة عن هذه العملية. وقد ترجم الدكتور المسيري النص نفسه بالاشتراك مع الأستاذ يُسري حلمي، وقام هو بكتابة المقدمة.

(14) الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية: دراساتٌ في بعض المفاهيم الصهيونية والممارسات الإسرائيلية

الناشر: مركز الأبحاث العربية، بيروت 1990م.

تعريف: ينقسم هذا الكتاب إلى قسمين، يتناول أولهما الظاهرة الصهيونية في سياقها الغربي، السياسي والاقتصادي والثقافي، كجزء من التشكيل الاستعماري الغربي، وباعتبارها ظاهرةً استيطانيةً إحلالية. كما يتناول هذا القسم مفهوم تطبيع الشخصية اليهودية، أي تحويل يهود المنفى الطُّفَيليين ـ حسب الرؤية الصهيونية ـ إلى مواطنين مُنتجين ذوي انتماء قومي محدد، وهذا ما يُطلق عليه «عملية التطبيع». ويتناول القسم الثاني موضوعات أخرى مثل «القومية اليهودية» و«التوسُّعية الصهيونية». كما يتناول بعض الممارسات والظواهر الإسرائيلية مثل الجريمة

والإرهاب، والهجرة الصهيونية إلى فلسطين المحتلة، والهجرة منها.

(15) هجرة اليهود السُّوفييت: منهجٌ في الرصد وتحليل المعلومات

الناشر: دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة 1990م.

تعريف: ظهر هذا الكتاب أثناء الحديث عن «جريمة العصر» (أي هجرة اليهود السُّوفييت) والهلع الذي صاحب ذلك الخوفَ من هذه الهجرة، التي قيل لنا وقتها إنها ستكون هجرة بالملايين، وأنها ستحوِّل الدولة الصهيونية إلى قُوة عظمى! وقد تحدَّت هذه الدراسة هذه الرؤية الاختزالية السطحية والمتسرعة، فقدَّمت بدلاً من ذلك دراسة لهجرة اليهود السُّوفييت باعتبارها حركة جذب لإسرائيل وطرد من الاتحاد السوفيتي. كما تناولت تاريخ يهود روسيا وبولندا منذ القرن التاسع الميلادي حتى الوقت الحاضر، وأنواع الجماعات اليهودية في هذين البلدين وثقافاتهم وتواريخهم و«مسائلهم» اليهودية المختلفة. وقد تنبأت الدراسة بأن عدد المهاجرين الصهاينة من الاتحاد السوفيتي لن يزيد على نصف مليون، وأنهم إن زادوا عن ذلك فسيكون من بينهم أعداد كبيرة من غير اليهود وأنهم سيسبِّبون مشاكل اجتماعية عديدة في إسرائيل، من بينها تزايد الصراع بين المتدينين والسفارد من جهة، وبين العلمانيين والإشكناز من جهة أخرى، كما ستؤدي هجرتهم هذه إلى تآكُل النسيج المجتمعي في إسرائيل. وبذلك قدمت الدراسة نفسها باعتبارها منهجاً للرصد وتحليل المعلومات، وليست مُجرد دراسة معلوماتية في هجرة اليهود السوفييت، وذلك انطلاقاً من تأكيد المسيري الدائم على أهمية التوصل إلى النماذج المعرفية الكامنة وراء المعلومة، وضرورة رؤية المعلومة باعتبارها جزءاً من نمط أكبر.

(16) الأميرة والشاعر: قصة للأطفال

الناشر: دار الفتى العربي، القاهرة 1993م.

تعريف: يكتبُ الدكتور المسيري، منذ السبعينيات، قصصاً للأطفال انطلاقاً من اعتباره هذه الكتابة جزءاً من مشروعه المعرفي الأكبر في رفض التحيُّزات (أيّما كان مصدرها) وتأكيد الهُوية العربية الإسلامية. ولذا فبطل قصص الأطفال التي يكتبها الدكتور المسيري جَمَلٌ (ليس دُبّاً) يُسمَّى «الجمل ظريف»، ويشترك معه في البطولة نور وياسر (أولاد الدكتور المسيري، والآن انضم إليهما حفيده نديم). ويمكن لأي طفل أن يُصبح بطلاً في القصة، الأمر الذي يُقوِّضُ نمط البطولة التقليدي. والجمل ظريف يظن نفسه عضواً في الأسرة ولا يدرك «جَمَليتَه» (إن صحَّ التعبير). ويحاول الدكتور المسيري أن يطوِّر فن القصة في قصص الأطفال التي يرويها و يجعلهم يدركون ان هناك قواعد للقصص يمكن اتباعها و يمكن تغييرها، ويمكن رفضها. ففي هذه القصة، على سبيل المثال، هناك قصة داخل القصة الأولى التي يرويها الجمل/ الراوي، أما القصة الثانية فهي قصة الأميرة والشاعر نفسها. وتتداخل القصتان وتنفصلان. وللقصة نهايتان: واحدة تقليدية، والأخرى حديثة. كما يلجأ الدكتور المسيري لمحاولة أن يجعل الأطفال داخل القصة الأولى يتحكَّمون في عملية القصّ ذاتها.

(17) إشكالية التحيُّز: رؤيةٌ معرفيةٌ ودعوةٌ للاجتهاد. (تأليف وتحرير)

الناشر: نقابة المهندسين، القاهرة 1993م ـ مجلدان كبيران/ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن 1996م ـ سبعة أجزاء/ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة 1998م.

تعريف: بدأت فكرة هذا الكتاب أثناء كتابة موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، إذ اكتشف المسيري أن المفاهيم والمفردات المستخدمة لوصف العقيدة اليهودية والظاهرة الصهيونية متحيِّزة، ولا تعبِّر عن التجربة العربية من قريب أو بعيد. ولذا دعا مجموعةً من الكُتَّاب العرب (أولاً في الرياض في المملكة العربية السعودية، ثم في القاهرة) وغير العرب، ليكتب كلٌّ منهم دراسة في حقل تخصصه عن التحيزات التي وجدها أثناء بحثه، وإمكانية تجاوز هذا التحيز. وكانت الثمرة مؤتمراً عُقد في القاهرة عام 1992م في نقابة المهندسين، وكتاباً من مجلدين ضخمين صدر في القاهرة عام 1993م (في طبعة محدودة) ثم في واشنطن (الطبعة العالمية) عام 1996م. ثم صدرت طبعة ثالثة (الطبعة الشعبية) في القاهرة عام 1998م في سبعة مجلدات، كل مجلد مخصَّص لفرع مستقل من فروع المعرفة. يضم المجلد الأول «فقه التحيُّز» وهو المقدمة الطويلة التي كتبها الدكتور المسيري لهذا العمل، وبيَّن فيها أسباب التحيُّز وأشكاله وكيفية تجاوزه، دون إلغائه. كما ضمت بقية المجلدات دراساتٍ أخرى للدكتور المسيري، فالمجلد الثاني المعنون بـ «مشكلة المصطلح» فيه دراسة بعنوان «هاتان تفاحتان حمراوان» عن تركيبية اللغة الإنسانية وعن علاقة الدَّال بالمدلول. وفي المجلد السادس المعنون «علم النفس والتعليم والاتصال الجماهيري» دراسة عن «الحقائق الصلبة والنموذج المُعْوَجّ». وقد تناول المجلد السابع والأخير فكر الدكتور المسيري والنموذج المعرفي الكامن في دراساته في مقالين، الأول للدكتور إبراهيم البيومي غانم بعنوان «إدراك التحيز في الفكر العربي الحديث»، أما الثاني فكتبه الأستاذ حسام الدين السيد بعنوان «التحيُّز والتفسيرات المادية».

(18) أسرار العقل الصهيوني

الناشر: دار الحسام، القاهرة 1996م.

تعريف: يدور هذا الكتاب حول قضية المُنحنى الخاص للإدراك وعلاقته بالسلوك، وأثرُ كل هذا على التحليل السياسي بشكل عام. ورغم أن كل الأمثلة التي تناولها الكتاب مستمدة من عالم الجماعات اليهودية والصهيونية (الإدراك الإسرائيلي للعرب والدولة الفلسطينية والانتفاضة ـ الإدراك الغربي لليهود ـ حادثة دريفوس ـ تهمة الدم ـ حادثة دمشق). . إلا أن الكتاب يحاول أن يبيِّن أن التعامل مع الحقائق الصُّلبة خارج السياق التاريخي، ودون دراسة البُعد الإدراكي والمعنى الداخلي، يجعل هذه الحقائق بلا معنى، أو يجعل من الممكن فرضُ أي معنى عليها. فأهمية الكتاب المنهجية تفوق ـ بمراحل ـ مضمونَه المباشر وسائرَ الأمثلة، اليهودية والصهيونية، التي وردت فيه.

(19) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد (ثمانية أجزاء)

الناشر: دار الشروق، القاهرة 1999.

تعريف: عملُ المسيري الأبرز، الذي استغرق من عمره ما يقرب من ثلاثين عاماً لإنجازه. وهذه الموسوعة لا تكتفي بالتفكيك، أي نقد المصطلحات الصهيونية، وإنما تنتقل إلى التأسيس، أي محاولة طرح رؤية عربية بديلة للظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، ووضع مصطلحات جديدة لوصف هذه الظاهرة. وتتناول الموسوعة كل جوانب تاريخ العبرانيين في العالم القديم، وتواريخ الجماعات اليهودية بامتداد بلدان العالم، وتَعْداداتها وتوزعاتها، وسماتها الأساسية، وهياكلها

التنظيمية، وعلاقات أفراد الجماعات اليهودية بالمجتمعات التي يوجدون فيها وبالدولة الصهيونية. وتغطي كذلك أشهر الأعلام من اليهود وغير اليهود ممن ارتبطت أسماؤهم بتواريخ الجماعات اليهودية، في شتَّى المراحل التاريخية والمواقع الجغرافية والانتماءات الحضارية. كما تتناول هذه الموسوعة كل الجوانب المتعلقة بتاريخ اليهودية، وفِرَقها وكتبها الدينية، وطقوسها وشعائرها، وأزمتها في العصر الحديث، وعلاقتها بالصهيونية وبمعاداة السامية (معاداة اليهود). كما تُغطي الحركة الصهيونية ونشاطاتها ومدارسها وأعلامها، وبعض الجوانب الأساسية للدولة الصهيونية. وتهدف الموسوعة إلى توفير وتمحيص الحقائق التاريخية والمعاصرة عن الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، وإلى تقديم رُؤية جديدة للموضوعات التي تغطيها. وهي تحاول إنجاز ذلك من خلال عدة طرق:

- تقديم تاريخ عام للعقيدة والجماعات اليهودية وللحركة الصهيونية.
- التعريف الدقيق للمفاهيم والمصطلحات السائدة، والتأريخ لها من منظور جديد، وإبراز جوانبها الإشكالية.
- إسقاط المفاهيم والمصطلحات المتحيِّزة، وإحلال مفاهيم ومصطلحات أكثر حياداً وتفسيريةً محلَّها.

وقد حصلت الموسوعة على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام 1999م.

(20) العَلمانية تحت المِجْهر [بالاشتراك مع الدكتور عزيز العَظْمة]

الناشر: دار الفكر، دمشق 2000م.

تعريف: صدر هذا الكتاب في سلسلة كتب «حوارات لقرن جديد» التي تصدرها دار الفكر بدمشق، وهي تأخذ شكل حوار مع الدكتور عزيز العظمة، وهو واحدٌ من أهم منظِّري العلمانية في العالم العربي. ويلخص الدكتور المسيري في هذا الكتاب رؤيتَه للعلمانية، وهي الرؤية التي وضَّحها بشكل أكثر تفصيلاً في كتابه العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة.

(21) الصَّهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى

الناشر: دار الشروق، القاهرة 2001م.

تعريف: دراسة في عَلاقة العنف بالصهيونية ومدى ارتباط الواحد بالآخر، فالصهيونية ما هي إلا شكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني الإحلالي. ويحاول المسيري في هذا الكتاب ـ كعادته دائماً ـ أن يتجاوز السَّرْدَ المعلوماتي لأحداث الإرهاب الصهيوني، ليُبيِّن أن هناك نمطاً أكثرَ عمقاً من الإرهاب، وهو العنف الصهيوني الذي يتبدَّى في أكثر الأشياء عمومية (نظرية الأمن) وأيضاً في أكثرها خصوصية (الطُّرق الالتفافية).

(22) الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد

الناشر: دار الشروق، القاهرة 2001م ـ طبعة ثانية 2003م.

تعريف: يحدِّد الدكتور المسيري مفهوم الجماعة الوظيفية بأنها جماعة يستوردها المجتمع من خارجه أو يجنِّدها من داخله، تُعرَّف في ضوء وظيفتها، لا في ضوء إنسانيتها الكاملة، ويَكِل المجتمع إليها وظائفَ لا يضطلع بها عادةً أعضاءُ المجتمع، إما لأنها مُشينة (البغاء ـ الرِّبا)، أو متميِّزة وتتطلب خبرة خاصة (الطب والترجمة)، أو أمنية وعسكرية (الخِصْيان ـ المماليك)، أو لأنها تتطلب الحياد الكامل

(التجارة وجمع الضرائب). ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحياد، وبأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية، وهم عادةً عناصرُ حركية لا ارتباطَ لها ولا انتماء، تعيش على هامش المجتمع في حالة اغتراب، ويقوم المجتمع بعزلها عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعي. وأعضاء الجماعة الوظيفية عادةً من حَمَلة الفكر الحلولي والعلماني الشامل. وقد استخدم الدكتور المسيري هذا النموذج في تحليل تاريخ الجماعات اليهودية ووضعها وانتماءاتها الثقافية. كما درس الدولة الصهيونية باعتبارها دولةً وظيفيةً، استيطانيةً إحلالية. ورغم أن هذا الكتاب يتناول الجماعات الوظيفية اليهودية بوجهٍ خاصٍّ من التركيز، إلا أنه ـ مع ذلك ـ يقدم مفهوم «الجماعة الوظيفية» باعتباره أداةً تحليلية أكثرَ تفسيريةً وتركيبيةً من مفهوم «الطبقة» التقليدي.

(23) رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثَّمر: سيرةٌ غيرُ ذاتية غيرُ موضوعية

الناشر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2000م. ودار الشروق، 2006م. طبعة جديدة تماماً من كتاب رحلتي الفكرية مُزوَّد بألبوم صور بعنوان «رحلتي في صور».

تعريف: كثيراً ما تُطرح على الدكتور المسيري أسئلةٌ خاصة بحياته الفكرية، وعن انتقاله من دراسة الشعر الرومانتيكي إلى دراسة الصهيونية وتاريخ الأفكار، ومن الرؤية المادية إلى الرؤية الإنسانية الإيمانية. ولهذا كتب سيرته «الذاتية» التي تحاول أن تؤرخ لتطوره الفكري، وتجيب في الوقت نفسه عن هذه الأسئلة وغيرها. ولذا فقد أطلق عليها عبارة «سيرة غير ذاتية»، حيث إنها لا تضم حياة فرد، بل هي سيرة مفكر عربي

إسلامي. ولكنها في الوقت نفسه تتضمن الحقائق الخاصة بفرد معيَّن له أبعاده الخاصة جداً، ولذا فهي أيضاً «سيرة غير موضوعية». وقد حصلت هذه السيرة على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب لعام 2001م.

(24) في الأدب والفكر: دراسات في الشعر والنثر

الناشر: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2007م.

تعريف: يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الأدبية المتنوعة على مستوى الشكل والمضمون بل المنهج، وإن كان ينتظمها خيط واحد، فجميعها يتناول قضايا فكرية متنوعة، كما أنها جميعاً تلتزم بعدم إطلاق أى تعميمات نقدية دون قراءة متمعنة فى النصوص ودون تجريد النموذج الإدراكى الكامن فى كل جزئيات النص وتفاصيله، ثم تحويله إلى نموذج تحليلي يُستخدم فى قراءة هذا النص فى كُليته وتكامله. وقد اسْتُخدمَتْ آليات عديدة لتحقيق هذا الهدف (التحليل الفلسفي ـ دراسة الخلفية التاريخية ـ التحليل الطبقي ـ التحليل البنيوي) ولكن من أهمها استخدام الصورة المجازية. وقد صُنفت الدراسات على أساس الموضوع الأساسى المتواتر الكامن الذى هو قريب الصلة بمفهوم النموذج. ويتناول الكتاب إشكاليات مختلفة من بينها كيفية استجابة بعض الأدباء في الشرق والغرب لقضية تحديث المجتمع وعلاقة الأدب بالسياسة وبالصراع العربي الإسرائيلي، والإشكاليات الفلسفية التي يواجهها الأدباء الأمريكيون.

(25) صمويل تايلور كوليردج، قصيدة الملاح القديم فى سبعة أقسام

الناشر: أويكننج، لندن ـ كاليفورنيا 2007م. طبعة باللغتين العربية

والإنجليزية، ترجمة وتعليق د.عبد الوهاب المسيرى ولوحات الفنانة دكتورة رباب نمر.

تعريف: يحوي هذا الكتاب النص الإنجليزي لقصيدة «الملاَّح القديم» للشاعر الانجليزى صمويل تايلور كوليردج، وترجمتها إلى العربية. وتَعقُّب الترجمةَ محاولةٌ لتقديم قراءة نقدية متمعنة موجزة تبين تلاقي الرؤية المسيحية الإنسانية مع الرؤية الإسلامية الإنسانية. وقد قامت الفنانة رباب نمر برسم تسع لوحات تصويرية للترجمة، وهي بذلك تقدِّم رؤية فنانة عربية للقصيدة. وقد طُبع الكتاب طبعة محدودة على هيئة كتاب فني، وجُلد تجليداً فاخراً، ومُرفق به حافظة تضم نسخ رقمية للتسع لوحات بحجمها الأصلي، كما تضم الدراسة النقدية الكاملة التي تَضَمّن الكتاب صورة موجزة منها.

(26) دراسات معرفية في الحداثة الغربية

الناشر: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2006م.

تعريف: يضمُّ هذا الكتاب دراسات عن الحضارة الغربية الحديثة والنموذج المعرفي الكامن وراء نظرياتها ومنتجاتها الحضارية. ويتناول الكتاب بعض قضايا المنهج المتصلة بقضية دراسة الحضارة وعلاقة الأفكار بالواقع. ويضم الفصل الثالث (ماكس فيبر والحداثة) ثلاث دراسات في فكر عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر والهدف منها أن توضح منهجه في دراسة الظواهر الحضارية الحديثة، فهو يستخدم النماذج المركبة مُتعددة الأبعاد ليفسر ظواهر مثل الرأسمالية والعلمانية، فيبين علاقتهما بالإصلاح الديني وبالحلولية. ويضم الكتاب كذلك محاولة لدراسة بعض تبديات النموذج الحضاري الغربي على مجمل حياة

الإنسان، العامة والخاصة، في الشرق والغرب، ومحاولة لتجريد النموذج المعرفي والحضاري الغربي وتحديد بعض سماته الأساسية. ومن أهم فصول هذا الكتاب الفصل الرابع المعنون (الحضارة الغربية الحديثة: حوار مع مؤرخ أمريكي) وهو محاولة لإلقاء الضوء على موقف البروفسور كافين رايلي صاحب كتاب (الغرب والعالم) من الحضارة بشكل عام والحضارة الغربية على وجه الخصوص، كما أنه يبين بعض تحفظات الدكتور المسيري على هذه الحضارة. ويتضمن مُلحق الكتاب دراسات في علاقة الأفكار بالواقع، ومن بينها دراسة في منهج البروفسور رايلي.

(27) الصهيونية وخيوط العنكبوت

الناشر: دار الفكر، دمشق 2006م.

تعريف: يضمُّ هذا الكتاب عدة مقالات تتناول طائفة متنوعة من الأحداث والظواهر المتعلقة باليهودية والصهيونية، وبمسار الصراع العربي الصهيوني. ويمكن القول: إنَّ هذه الدراسة هي محاولة لاستخدام النماذج التي طوَّرها المؤلف في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد لتفسير الأحداث والوقائع التي يتعرض لها الكتاب بالتحليل والمعلومات التي ترد فيه. ويحاول الكاتب قدر استطاعته أن يضع الحدث والمعلومات داخل نمط متكرر متجاوز للحدث نفسه والمعلومة نفسها وأكثر عمومية منهما، بالإضافة إلى وضعهما في سياقهما التاريخي والثقافي حتى يمكن فهمهما في أبعادهما المركبة. ويتناول الجزء الأول من الكتاب الموضوعات التي تدور حول بعض جوانب الاستعمار الصهيوني، مثل الديموجرافيا اليهودية، وجُذور

الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، وقضية المصطلح الصهيوني وكيف أنه يعبر عن مفاهيم صهيونية وضرورة الحذر منه.

ويتناول الجزء الثاني من الكتاب مفهوم الوحدة اليهودية كما يتبدَّى فيما يُسميه المؤلف خرافة القومية اليهودية، وخرافة الهوية اليهودية، وخرافة الشخصية اليهودية. ويحاول هذا الجزء أن يُبين، من خلال الأمثلة المحددة والشواهد المتعددة، أنه لا يوجد أي تجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية، وأن الحديث عن الوحدة اليهودية هو خرافة ابتدعها الصهاينة والمعادون لليهود واليهودية على حد سواء لإسباغ الشرعية على المشروع الصهيوني. ثم ينتقل الكتاب بعد ذلك إلى عالم الإدراك، فيحاول أن يُبين كيف يدرك الإسرائيليون واقعهم وواقع الفلسطينيين، فهذا الإدراك، وليس الواقع المادي المباشر، هو الذي يحدد كثيراً من جوانب استجابتهم لما يقع لهم من أحداث. أما بقية الكتاب فيتناول موضوعات شتَّى مثل: بروتوكولات حكماء صهيون والفكر التآمري بشكل عام. ويتناول الفصل الأخير من الكتاب موضوع نهاية إسرائيل وهو موضوع يحجم الإعلام العربي الرسمي عن تناوله، بينما لا يتردد الإعلام الصهيوني في ذلك، فهاجس نهاية إسرائيل يطارد الإسرائيليين دائما. وعنوان الكتاب له دلالة، فقد كان مُوشيه يعلون، الذي كان يشغل منصب رئيس هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي. دائماً يمتدح قدرة الشعب الإسرائيلي على الصمود في الصراع الدائر مع الفلسطينيين، واعتاد الظهور في أوساط إسرائيلية مختلفة ليدْحَض نظرية «خيوط العنكبوت» المنسوبة للسيد حسن نصر الله، أمين عام «حزب الله»، ومؤداها أن إسرائيل تبدو من الخارج دولة عُظمى من الناحية العسكرية، ولكن من يلمسها يدرك أنها تتفكك مثل خُيوط العنكبوت. ولكن مع

تصاعد معدلات القلق داخل التجمع الصهيوني، اضطُر يَعْلون، في تصريحات نقلتها صحيفة يديعوت أحرونوت في موقعها على الإنترنت (11 فبراير/شباط 2003)، إلى الاعتراف بأن قدرة المجتمع الإسرائيلي على الصمود محدودة للغاية، بل أقر بصواب نظرية «خيوط العنكبوت». وقد عبَّر يَعْلُون عن رأيه هذا في اجتماع مُغلق أمام شخصيات من العاملين في مجال التربية والتعليم في القدس، ووصفت الصحيفة هذه التصريحات بأنها (شاذَّة)، وبأنها وقعت على مسامع الحاضرين وقع الصاعقة، وهو الأمر الذي دفع يَعْلُون فيما بعد إلى نفي تصريحاته مدعياً أنها أُسيءَ فهمها، ومن ثم حُذفت تماماً من موقع الصحيفة. ومما يستلفت النظر أن معظم الصحف العربية تجاهلت الخبر تماماً، بينما نشرته بعض الصحف الأخرى على استحياء في زاوية مهملة، وكأنه خبر عابر لا أهمية له، وكأنه ليس تقييماً حقيقياً لمعنويات الكُتلة البشرية الاستيطانية التي احتلت أرض فلسطين، صادر عن أحد أعمدة المؤسسة العسكرية الصهيونية، وكأنه ليس مؤشراً قوياً على عمق الأثر الذي تحدثه الانتفاضة الفلسطينية على التجمع الصهيوني.

(28) الموسوعة الموجزة: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية في مجلدين

الناشر: دار الشروق، القاهرة 2004م، طبعة ثانية 2005م.

تعريف: هذه الموسوعة هي تلخيص لموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية التي صدرت في ثمانية مجلدات. وقد احتفظ المسيري بالمادة الأساسية في موسوعته الموجزة، ولكنه حاول تقريب موضوعاتها لتكون في متناول القارئ غير المتخصِّص.

(29) التجانس اليهودي والشخصية اليهودية

الناشر: دار الهلال، كتاب الهلال، 2004م.

تعريف: يضم هذا الكتاب عدة مقالات نُشرت في عدة جرائد عربية على مدى الأعوام الماضية. والمقال الأسبوعي عادةً ما يدور حول حدث ما، حدثٌ (ساخن) كما يقولون في عالم الإعلام، وهم عادةً ما يعنون بذلك حدثاً وقع لتوّه. هذا المطلب يمثل جزءًا من توقعات القارئ من جريدته اليومية. ولكن مؤلف هذا الكتاب لا يؤمن بجدوى ما يسميه (الموضوعية المادية المُتلقية) التي تتلقى تفاصيل الواقع ثم تسجلها دون تصنيف أو ترتيب بهدف مراكمة المعلومات، ولذا فقد حاول قدر استطاعته أن يضع الحدث داخل نمط متكرر متجاوز للحدث نفسه وأكثر عمومية منه، كما كان يضعه في سياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي حتى يمكن فهمه في أبعاده المركبة. وبهذا تم تطبيق بعض المفاهيم التحليلية الأساسية التي وردت في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية على الأحداث الآنية. وقد قام المؤلف بجمع هذه المقالات في كتاب، بعد أن قام بإعادة تصنيفها حسب الموضوع الأساسي الكامن وداخل النمط المتكرر. وبذلك يمكن للقارئ أن يرى الحدث (الساخن) في إطار النمط (الدافئ) والسياق الحي الذي يُعطي الحدث معناه وأبعاده الحقيقية. فهناك مجموعة من المقالات عما يسمى (القومية اليهودية) وآخر عما يسمى (الشخصية اليهودية) وثالث عن الهيكل ومحاولات إعادة بنائه.

(30) الحداثة وما بعد الحداثة (بالاشتراك مع الدكتور فتحي التريكي)

الناشر: دار الفكر، سلسلة حواراتٌ لقرنٍ جديد، دمشق 2003م.

تعريف: يتضمن هذا الكتاب تلخيصاً لآراء الدكتور المسيري التي تتعلق بفلسفة ما بعد الحداثة. كما أنه يقدم دراسة مستفيضة لعلاقة اليهود واليهودية بها، وسرداً للمواجهة التي حدثت في القاهرة بينه وبين الفليسوف الفرنسي عاك دريدا.

(31) البروتوكولات واليهودية والصهيونية

الناشر: دار الشروق، القاهرة يناير 2003م، طبعة ثانية إبريل 2003م، طبعة ثالثة مايو 2003م، طبعة رابعة يناير 2005م.

تعريف: يرى المسيري أن البروتوكولات وثيقة مزيَّفة، وذلك استناداً إلى بعض الحقائق التي نُشرت عن أصولها ومن خلال تحليل النص من الداخل. وهو يبيِّن في هذه الدراسة أن «الفكر البروتوكولي» التآمري فكر اختزالي، ليست له مقدرة تفسيرية ولا حتى تَعبوية؛ لأن كُره اليهود ـ الذي ينطلق منه هذا الخطاب ـ يصب في واقع الأمر في الخندق الصهيوني. فمَنْ يكره اليهود يقوم باضطهادهم والتحريض ضدهم، مما يضطرهم إلى «الخروج» من بلدهم ليتحولوا إلى مستوطنين في بلادنا! كما أننا، بتصوُّرنا أن اليهود هم «السَّبب» فيما يلحق بنا من مصائب، نتجاهل الدعم الأمريكي الشامل والمستمر للجيب الصهيوني، وهو الدعم الذي يضمن له الاستمرار والبقاء. والصهيونية، كما يقول المسيري، هي دعوة لتخليص أوروبا من اليهود وتصديرهم إلى مكان خارجَها ليوظَّفوا لصالحها. وتبيِّن الدراسة أن الجذور الحقيقية للصهيونية هو الاستعمار الغربي ومعاداة السامية. وتخلُص الدراسة إلى أن ترويج البروتوكولات يبث روح الهزيمة ويقوِّض روح الجهاد، وأن الإصرار على أن اليهودية عبارة عن مجموعة من الصفات الثابتة التي يتوارثها

اليهود جيلاً بعد جيل يتنافى وتعاليمَ الإسلام التي تذهب إلى أن الرذيلة ـ مثل الاستقامة ـ مسألةُ اختيار وليست مسألةَ ميراث. وتختتم الدراسة بفصل عن إبداعات انتفاضة 1987م وانتفاضة الأقصى، وكيف أن مثل هذا الإبداع لم يكن ممكناً إلا بعد أن نَفَض المنتفضون عن أنفسهم غُبارَ الخوف والهزيمة.

(32) الصهيونية والحضارة الغربية الحديثة

الناشر: دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة 2003م.

تعريف: شاع في الخطاب التحليلي العربي أنَّ الصهيونية تضرب بجذورها في التوراة والتلمود والتقاليد الدينية والإثنية اليهودية. ويذهب المسيري إلى أن ثمة خللاً تصنيفياً أساسياً هنا، فالصهيونية، كما تُحاول أن تبين هذه الدراسة، ذات جذور غربية ثم أُضيفتْ لها ديباجات يهودية. فالبُعد اليهودي في معظم الأحيان بُعد زخرفي تبريري، أضيف من أجل مقدرته التعبوية. وقد أدى هذا الخلل التصنيفي إلى خطأ الافتراضات التي تبدأ بها كثير من البحوث في العالم العربي، وهذا يُحدد بطبيعة الحال المجال الذي ترصده هذه البحوث وطريقة تصنيف المعلومات والنتائج التي يصل إليها الباحث، فهي في معظم الأحيان ليس لها قيمة تفسيرية أو تنبُّئية عالية. وتتناول هذه الدراسة هذه الإشكالية، فهي تحاول أن توضح العناصر الغربية الأساسية (المادية والمعنوية) التي دخلت في تكوين الرؤية الصهيونية للواقع، وأن تبين أن الصهيونية ليست مجرد انحراف عن الحضارة الغربية الحديثة، كما يحلو للبعض القول، وإنَّما هي إفراز عُضوي لهذه الحضارة ولما نسميه بالحداثة الداروينية، أي الحداثة التي ترمي إلى تحويل العالم إلى مادة استعمالية تُوظَّف لصالح

الأقوى (في مُقابل الحداثة الإنسانية التي ترمي إلى تحقيق التوازن بين الذات والطبيعة والتي تطالب بتكاتف كل أبناء الجنس البشري لإعمار الأرض لصالح البشرية جمعاء بما في ذلك الأجيال القادمة).

(33) دفاع عن الإنسان: دراسة نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة

الناشر: دار الشروق، القاهرة 2003م.

تعريف: تتناول دراسات هذا الكتاب إشكالية منهجية، وهي ضرورة استخدام النَّماذج المركبة لتفسير الظواهر الإنسانية والابتعاد عن النماذج الاختزالية. والنماذج المركبة هي النماذج التي لا تكتفي بعنصر واحد في تفسير الظواهر، وإنَّما تأخذ في الاعتبار عناصر عدة منها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل تصل إلى العناصر الحضارية والأبعاد المعرفية. ولأنَّ النموذج التحليلي المركب متعدِّد الأبعاد والمستويات فإنَّه يمكنه الإحاطة بمعظم جوانب الظاهرة موضع الدراسة. ويتضمن الكتاب تعريفاً بالنماذج المعرفية وعلاقة الإدراك بالواقع ومقارنة بين النَّماذج الاختزالية والنَّماذج المركبة، كما يتضمن جزءاً عن علاقة المؤشر بكل من هذه النماذج. ويحاول الكتاب تطبيق المنهج التفسيري من خلال نماذج مركبة على ظواهر حضارية مختلفة ومتنوعة مثل الماسونية والرأسمالية ومعاداة السامية.

(34) في الخطاب والمصطلح الصهيوني

الناشر: دار الشروق، القاهرة 2003م، طبعة ثانية 2005م.

تعريف: هذا الكتاب هو محاولة للتأكيد على قضية محورية، وهي قضية المصطلحات أو تسمية الظواهر والأشياء. فالمصطلحات تُخبئ

مفاهيم، وهذه المفاهيم قد تكون متحيزة ضدنا إن كان من صَكَّ المصطلح معادياً لنا ورؤيته للواقع تغيبنا وتُهدر حقوقنا. فحينما يُشير الصهاينة إلى «فلسطين» باعتبارها «إسرائيل» وإلى «القدس» باعتبارها «أورشليم»، وحينما يتحدثون عن «أمن إسرائيل» أو «حدودها» فإنهم عادةً ما يُعطون هذه المصطلحات مضموناً متحيزاً ضدَّنا، بل ومعادياً لنا. ومن هنا ضرورة إدراك هذا البُعد في المصطلحات والتصدِّي له، وهذا ما تحاول أن تنجزه هذه الدراسة عن طريق تقديم خطوط نظرية منهجية عريضة وبعض التطبيقات.

(35) الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلَّح

الناشر: دار الحمراء، بيروت 2003م.

تعريف: من أعقد القضايا التي يُواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني، وكيف تكون استجابة الإنسان الذي يتم تحدي خريطته الإدراكية، كما يحدث فى فلسطين المحتلة حين يتحدَّى المنتفضون خريطة الصهاينة الادراكية التي تستند إلى مجموعة من الأساطير والديباجات التوراتية من خلال المقاومة أو ما نسميه الحوار المُسلَّح. وهذه القضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل الطبيعية. وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية: هذا هو هدفه، وهذا ما يرمي إلى تحقيقه. ورغم أن كل فصول الكتاب تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به)، فإنَّ هذه مجرد دراسات لحالات، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الخريطة

الإدراكية وكيف تُحدد الرؤية و كيف يمكن تحدّيها حتى يتم تعديلها أو تقويضها تماماً، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة متعينة.

*** (36) من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية: أثرُ الانتفاضة على الكيان الإسرائيلي**

الناشر: الدكتور عبد الوهاب المسيري. صدرت منه عدة طبعات: القاهرة ـ دمشق ـ برلين ـ نيويورك ـ نشر إلكتروني، حقوق الطبع محفوظة للقُرَّاء 2002م.

تعريف: أراد المسيري أن تكون هذه الدراسة عن انتفاضة الأقصى مكمِّلة لدراسته السابقة عن انتفاضة 1987م الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسةٌ في الإدراك والكرامة. وفيها يبيِّن الانتقالةَ النوعيةَ التي حقَّقها الشعب الفلسطيني في نضاله ضد الكيان الصهيوني، والأثرَ العميقَ الذي تركه هذا النضال عليه.. ابتداءً من الخسائر الاقتصادية التي ألحقتها الانتفاضة بالتجمُّع الصهيوني، مروراً بالعوامل النفسية، وانتهاءً بظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية وسقوط الإجماع بخصوص الاستيطان.

(37) أغنياتٌ إلى الأشياء الجميلة

الناشر: دار الشروق، القاهرة 2002م.

تعريف: ديوان شعر (حُر) للأطفال، يتحدث عن موضوعات الحياة الأساسية مثل الميلاد والزواج واكتساب الخبرة والموت. وقد حصلت هذه المجموعة الشعرية على جائزة سوزان مبارك لأدب الأطفال عام 2002م، كما حصلت على جائزة منظمة IBBY العالمية عام 2004م.

(38) إنهيار إسرائيل من الداخل

الناشر: دار المعارف، القاهرة 2002م.

تعريف: دراسات متنوعة في الكيان الصهيوني تُغطي الموضوعات الأساسية التالية: الديموجرافيا اليهودية، النبوءات الصهيونية، العُنف الصهيوني، إعادة بناء الهيكل. ثم تتوجه الدراسة إلى قضية «إنهيار إسرائيل من الداخل»، وكيف أن عوامل الأزمة آخذة في التفاقم ولكنها لن تؤدي إلى الانهيار؛ لأن مقوِّمات حياة الكيان الصهيوني ليست من داخله، وإنَّما من خارجه، فهو لا يحقق لنفسه الاستمرار من خلال جُهد المستوطنين الصهاينة، وإنَّما من خلال الدعم الأمريكي الغربي ـ السياسي والاقتصادي والعسكري ـ المستمر، ولذا، لابد من استمرار الجهاد ضد هذا العدو.

(39) الإنسان والحضارة والنماذج المركَّبة: دراساتٌ نظريةٌ وتطبيقية

الناشر: دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة 2002م.

تعريف: ينطلق المسيري في هذا الكتاب من الفكرة المحورية الأساسية في فكره: اختلاف الإنسان عن الطبيعة/ المادة، ومن ثَمَّ ضرورة استخدام النماذج المركبة لتفسير الظواهر الإنسانية، خاصةً الظواهر التي تتجاوز المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي وصولاً إلى المستوى الحضاري والمعرفي. فدراسة أية ظاهرة على هذا المستوى تتطلب نَموذجاً تحليلياً متعدِّدَ الأبعاد والمستويات، مركَّباً إلى أقصى درجات التركيب حتى يمكنه الإحاطةُ بمعظم جوانب الظاهرة موضع الدراسة. وكل دراسات هذا الكتاب محاولة لتطبيق هذا المنهج التحليلي على ظواهر حضارية مختلفة، مثل حُروب الفرنجة، ووضع

أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية، وعلاقة مِعْمار المتاحف بالرؤى الفكرية والأيديولوجية المختلفة، والانتفاضة الفلسطينية. كما يتضمَّن الكتاب عرضاً لمنهج كافين رايلي، المؤرخ الأمريكي، في تفسير الظواهر الحضارية من خلال النماذج المركبة. وفي النهاية أُلحقت به دراسة نظرية طويلة في المنهج المقترح استخدامه في الدراسات الحضارية، تضمَّنت مقارنةً بين النماذج الاختزالية والنماذج المركبة وكيفية صياغتها.

(40) فلسطينيةً كانت ولم تَزَلْ: الموضوعاتُ الكامنةُ المتواترةُ في شعر المقاومة الفلسطيني

الناشر: الدكتور عبد الوهاب المسيري، نشر خاص، القاهرة 2002م.

تعريف: يضمُّ الكتاب مختاراتٍ من شعر المقاومة الفلسطيني حتى عام 1980م. وقد تم تقسيمها إلى عدة موضوعات رئيسة (جماليات المقاومة، في المراثي، في حب فلسطين، الصمود والمقاومة، الانتصار). وتتناول مقدمة المسيري النقدية الطويلة كلَّ هذه الموضوعات، وخصوصاً جماليات المقاومة التي تدور حول إشكالية الشاعر الذي يبغي تغيير المجتمع وتحطيم الظلم، ولكنه يعبِّر عن نفسه من خلال شكل جمالي ثابت متسق مع نفسه (وقد نُشرت هذه المقدمة من قبل باللغة الإنجليزية في كتاب العُرْس الفلسطيني The Palestinian Wedding، الذي قام المسيري بتحريره). ويضم الكتاب لوحاتٍ للفنان كمال بلاطة رسمها لهذا الكتاب ولكتاب آخر، حرَّره الدكتور المسيري أيضاً (وهو كتاب عاشقٌ من فلسطين A Lover from Palestine).

(41) مقدمةٌ لدراسة الصراع العربي ـ الإسرائيلي: جذورُه ومسارُه ومستقبَله

الناشر: دار الفكر، دمشق 2002م.

تعريف: يضم هذا الكتاب ستة فصول تحاول تقديم رؤية شاملة لجذور الصراع العربي الإسرائيلي ومساره ومستقبله. فيقدم الفصل الأول (يهودٌ، أم جماعاتٌ يهودية؟) رؤيةً «بانورامية» للجماعات اليهودية في العالم: أعدادهم، وهجراتهم، وتنوعهم، وعدم تجانسهم. ويتناول الفصل الثاني (يهودٌ، أم جماعاتٌ وظيفية يهودية؟) مفهومَ الجماعة الوظيفية، ويحاول تطبيقه على الجماعات اليهودية. أما الفصل الثالث (الصهيونية والمسألة اليهودية) فيبيِّن كيف تبلور الفكر الصهيوني داخل التشكيل الحضاري الغربي والإمبريالي. أما الفصل الرابع (موجز تاريخ الصهيونية) فيحاول أن يقدم خريطة متكاملة لتطور الفكر الصهيوني. ويتناول الفصل الخامس (الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني) الظاهرة الصهيونية، ويحاول أن يحدد سماتِها العامةَ والخاصة، ويطرح تعريفاً لها، بدلاً من التعريفات الغربية المتحيزة ذاتِ المقدرة التفسيرية الضعيفة. ويتناول الفصل السادس والأخير (أزمة الصهيونية) مصادر أزمة الأيديولوجية والتجمع الصهيوني، ومدى تأثيرها في مستقبل إسرائيل.

(42) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان

الناشر: دار الفكر، دمشق 2002م.

تعريف: تشكِّل الفلسفة المادية البِنْيةَ الفكرية التحتية، أو النموذج المعرفي الكامن للعديد من الفلسفات الحديثة: الماركسية والبرجماتية والداروينية وغيرها. كما أنها تشكِّل الإطارَ المرجعيَّ الكامنَ لرؤيتنا

للتاريخ والتقدُّم وللعلاقات الدولية، بل وأحياناً لأنفسنا. وقد ارتبطت الفلسفة المادية في عقول الكثيرين بالعقلانية والتقدُّم والتسامح... إلخ، مع أن الواقع أبعدُ ما يكون عن ذلك! ويذهب المسيري في هذه الدراسة إلى أنه قد حان الوقت لفتح باب الاجتهاد بخصوص هذه الفلسفة، نظراً لأهميتها وهيمنتها على بعض أعضاء النُّخَب الثقافية والفكرية عندنا. ويمكن تصنيف هذه الدراسة باعتبارها محاولةً في هذا الاتجاه. فهي تحاول تعريف الفلسفة المادية وسر جاذبيتها ومواطن قُصورها، فهي تُخفق في تفسير ظاهرة الإنسان، بل تُشكل هجوماً على الطبيعة البشرية. وتتناول الدراسة كذلك مفهوم العقل، فتبيِّن أن العقل في حد ذاته مفهوم عائم غائم، وأن المهم هو النموذج الكامن وراء العقل. وانطلاقاً من هذا التصوُّر تحاول الدراسة حصر أهم سِمات العقل المادي، كما تحاول توضيح الفرق بين العقل الأداتي والعقل النقدي. وتتناول بقية الدراسة بعض التجليات التاريخية للفلسفة المادية، مثل العلمانية الشاملة والإمبريالية والداروينية والإبادة الغربية لملايين البشر ابتداءً من عصر النهضة في الغرب في الأمريكتين حتى العصر الحديث في ألمانيا النازية والجزائر وفيتنام والبوسنة والشيشان.

(43) اللغة والمجاز: بين التوحيد ووَحْدة الوجود

الناشر: دار الشروق، القاهرة 2002م، طبعة ثانية 2006م.

تعريف: تتناول هذه الدراسة موضوعاً جديداً بعض الشيء، وهو علاقة اللغة والمجاز برؤية الإنسان للكون وتصوره لعلاقة الخالق بالمخلوق، أي أنها تربط بين عدة مجالات من النشاط الإنساني (الدراسات اللغوية، الدراسات الدينية، الدراسات النفسية). وهي تنقسم إلى بابين، يتناول الأول منهما الصورَ المجازية باعتبارها تعبيراً متعيناً عن

رؤية الإنسان للكون. حيث ترصد الدراسة الصورتين المجازيتين الأساسيتين في الحضارة الغربية الحديثة: الصورة الآلية والصورة العضوية، كما يتم فيه تطبيق منهج تحليل الصورة المجازية كمدخل لفهم النموذج الكامن المهيمن على العقل الصهيوني، سواء في علاقته بذاته أم في علاقته مع الآخر. أما الباب الثاني من الدراسة فيتعامل مع موضوع أكثر تجريداً، وهو علاقة رؤية الكون باللغة، وإشكالية علاقة الدَّال (المصطلح ـ الإشارة ـ الإسم) بالمدلول (المفهوم ـ المشار إليه ـ المسمَّى). فتبين الدراسة أن الرؤية اللغوية التي تذهب إلى أن ثمة علاقة اتصال وانفصال بين الدَّال والمدلول، عادةً ما تستند إلى الرؤية التوحيدية التي تذهب إلى أن الإله هو مركز الكون، مفارقٌ له ولكنه يرعاه، فهو في علاقة تواصل بالعالم وانفصال عنه، وأن ثمة مسافةً تفصل بين الخالق والمخلوق. أما الرؤية التي ترى أن ثمة اندماجاً كاملاً بين الدَّال والمدلول أو انفصالاً كاملاً بينهما، فإنَّها تستند إلى الرؤية الحُلولية، التي ترى أن الإله قد حلَّ تماماً في مخلوقاته، فأُلغيت المسافة بينهما وأصبح الخالق والكون جوهراً واحداً. ثم تتناول الدراسة نوعين من الخطاب واللغة: اللغةُ المجازية متعددةُ المستويات والأبعاد، في مقابل اللغة الأيقونية والحَرْفية، واحديَّةِ المستوى والبُعد. فاللغة المجازية تعبِّر عن الرؤية التوحيدية للإله باعتباره منفصلاً عن الكون ومتصلاً به في آنٍ واحد، أما اللغة الأيقونية والحرفية فهي نِتاج اعتقاد تجسُّد الإله في العالم وحُلوله فيه وتوحُّده معه.

(44) العَلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة

الناشر: دار الشروق، جزآن، القاهرة 2002م، طبعة ثانية 2005م.

تعريف: أهمية هذه الدراسة موازيةٌ تماماً لأهمية دراسة المسيري

للصهيونية واليهودية. وتشكل هذه الدراسة، المكوَّنة من مجلدين، جزءاً من دراسة أوسع عن العلمانية. ويتناول هذان المجلدان قضية العلمانية (في جانبيها النظري والتطبيقي) من منظور مختلف بعض الشيء عمَّا هو سائد وشائع. فهي لا تتبنى التعريفاتِ الشائعة، بل تفرِّق بين «العلمانية الجزئية» و«العلمانية الشاملة» كما يُطلق عليها المسيري. والفرق بينهما أن العلمانية الجزئية تُطالب بفصل الدين عن الدولة وحسب، بينما تلزم الصمت بخصوص القيم النهائية والمطلقة والحياة الخاصة والمرجعية النهائية للقرارات السياسية والاقتصادية والتربوية. أما العلمانية الشاملة فهي ليست فصلَ الدين عن الدولة وحسب، وإنَّما فصلُ القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، لا عن الدولة وحسب وإنَّما عن مجمل حياة الإنسان في جانبها العام والخاص وعن المرجعية النهائية للدولة ولكل قرارات الإنسان، بحيث تنزع القداسة عن العالم، فتصبح كل الأمور نِسبية، ويتحوَّل الإنسان والطبيعة إلى مادة استعمالية يوظفهما الأقوى لصالحه. ونتيجةً لهذا يظهر العلم المنفصل عن القيمة، والجسدُ المنفصل عن القيمة، والحياةُ المنفصلة عن القيمة، وتظهر المنظومة الداروينية باعتبارها منظومة القيم الوحيدة الممكنة في مثل هذا العالم. وإذا كان من الممكن تقبل العلمانية الجزئية، أي فصل الدين عن السياسة وربما الاقتصاد (بمعنى الإجراءات السياسة والاقتصادية)، فالعلمانية الشاملة أمر من العسير تقبُّله، لأنها أيديولوجية كاسحة لا يُوجد فيها مجال للإنسان أو للقيم، ومن ثَمَّ فهي لا تتصالح مع الدين ولا مع الإنسان، مسلماً كان أم مسيحياً أم يهودياً، وتحاول أن تختزل حياة الإنسان للبُعد المادي وحسب! وتتكون الدراسة من مُجلدين منفصلين رغم ارتباطهما الواحد بالآخر: كُرِّس المجلد الأول منهما لإشكالية

تعريف العلمانية والمراجعات المختلفة (الغربية والعربية) بخصوص مصطلح العلمانية والمفهوم أو المفاهيم المتناقضة الكامنة وراءها.

وفي المجلد الثاني ينتقلُ المسيري من النظرية إلى التطبيق ـ أي إلى عمليات العلمنة الشاملة .؛ فيتناول عمليات الترشيد في الإطار المادي وأثرها في المجتمع الإنساني في مجالات النشاط الإنساني المختلفة، ابتداءً من علْمنة الرؤية والدين والنظريات السياسية والتربوية والأخلاقية والجمالية، وانتهاءً بعلْمنة الملابس والطعام والجريمة! كما يقدِّم بعض مؤشرات العلمانية الشاملة، وبعض المشكلات الناجمة عن العلمنة الشاملة. ثم يتناول إشكالية محدَّدة هي علاقة العلمانية الشاملة باليهود واليهودية والصهيونية، وهي إشكالية خِلافية تشغل العقل العربي، لأسباب غنية عن التعريف.

(45) الصَّهيونية والعُنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى

الناشر: دار الشروق، القاهرة 2001م.

تعريف: دراسة في عَلاقة العُنف بالصهيونية ومدى ارتباط الواحد بالآخر، فالصهيونية إنْ هي إلا شكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني الإحلالي. ويحاول المسيري في هذا الكتاب ـ كعادته دائماً ـ أن يتجاوز السَّرْدَ المعلوماتي لأحداث الإرهاب الصهيوني، ليُبيِّن أن هناك نمطاً أكثرَ عُمقاً من الإرهاب، وهو العنف الصهيوني الذي يتبدَّى في أكثر الأشياء عمومية (نظرية الأمن) وأيضاً في أكثرها خصوصية (الطُّرق الالتفافية).

(46) العالم من منظور غربي

الناشر: دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة 2001م.

تعريف: حاول الإنسان الغربي الحديث «تَدْويلَ» نماذجه الحضارية والمعرفية من خلال التشكيل الاستعماري الغربي، وهو ما يُعرف في الوقت الحاضر باسم «الغزو الثقافي». وفي هذا الكتاب يؤكد المسيري أن لكل مجتمع رؤيتَه المتميِّزة للكون والتحيزات الناجمة عنها، ولكن ما حدث هو أن كثيراً من شعوب العالم بدأت تتخلَّى عن رؤيتها وتحيزاتها النابعة من واقعها التاريخي والإنساني والوجودي، وبدأت تتبنَّى - عن وعي أو عن غير وعي - الرؤيةَ والتحيُّزاتِ الغربية، وبدأت تنظر إلى نفسها من وجهة نظر الغرب. وتتصدَّى هذه الدراسة، وهي تطويرٌ للمقدمة التي كتبها المسيري لكتاب إشكالية التحيز، لهذه القضية بمزيد من التفصيل، وتحاول أن تتجاوز عملية التفكيك وصولاً إلى الجانب التأسيسي، وذلك عن طريق تحديد بعض المنطلقات الأساسية للنموذج البديل وبعض الأمثلة على محاولات تطبيقه.

(47) الأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الأقصى

الناشر: دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة 2001م.

تعريف: يحاول هذا الكتاب تفكيك وإعادة تركيب بعض المفاهيم والمصطلحات الصهيونية الأساسية مثل «الشعب اليهودي» و«الخصوصية اليهودية» و«الصهيونية المسيحية»، حتى تتعمق رؤيتُنا للعدو الصهيوني، وحتى ندرك مواطن قوته وضعفه، ومن ثَمَّ يُمكننا تحسينُ مقدرتنا على التنبؤ بسلوكه والتصدِّي له. كما يتناول الكتاب جانباً مهمّاً من الظواهر اليهودية والصهيونية لم يتمَّ التصدِّي له بما فيه الكفاية، وهو البُعد الديموجرافي، وكيف يوظف الصهاينة الأرقام لترويج مفاهيمهم. كما يحلِّل الكتاب أزمة الصهيونية على مستوى النظرية والتطبيق.

(48) قضية المرأة بين التحرُّر والتمركز حول الأنثى

الناشر: دار نهضة مصر، سلسلة التنوير الإسلامي، القاهرة 1999م.

تعريف: قضية تحرير المرأة من القضايا الأساسية التي تواجه الإنسان في العصر الحديث، حيث ظهرت حركات تحرير المرأة، ثم ظهر ما يسمَّى «الفيمينيزم feminism»، والتي يترجمها المسيري بـ «التمركز حول الأنثى»، وهو يذهب في هذا الكتيب إلى أنه يجب التفرقة بينهما. فبينما تحاول حركات تحرير المرأة، انطلاقاً من مفهوم الأسرة، أن تحسِّن وضع المرأة داخل المجتمع، تحاول حركات التمركز حول الأنثى ـ انطلاقاً من مفهوم الفرد المطلق ـ أن تفصلها عنه، ولذا فهي تطرح برنامجاً يطالب بتغيير اللغة وإعادة دراسة التاريخ، مؤكدةً الجانبَ الصِّراعيَّ بين الرجال والنساء. وهي في هذا لا تختلف عن الصهيونية، التي لا تحاول حماية حقوق أعضاء الجماعات اليهودية في أوطانهم، وإنما تؤكد انفصالهم عن المجتمعات الإنسانية التي يعيشون بين ظهرانَيْها، مركِّزةً على وقائع الظلم الذي لحق بهم عبر التاريخ، متجاهلةً ما حققه بعضهم من ثراء وبروز، وما حققوه من اندماج وانصهار في مجتمعاتهم، كل ذلك من أجل أن يتسنَّى نقلُهم إلى فلسطين، فيتحولوا من مواطنين في أوطانهم إلى مستوطِنين في وطننا. وتدعو الدراسة إلى استخدام الأسرة كوحْدة تحليلية بدلاً من الفرد.

(49) فكر حركة الاستنارة وتناقضاته

الناشر: دار نهضة مصر، سلسلة التنوير الإسلامي، القاهرة 1999م.

تعريف: يُشكل فكر حركة الاستنارة الأساسَ الفلسفيَّ للحداثة الغربية التي تبدَّت في كلٍّ من المنظومتين الرأسمالية والاشتراكية، وهي

الإطار المرجعي للعلوم الإنسانية والاجتماعية في الغرب. ويحاول المسيري في هذا الكتيب إظهار بعض التناقضات الأساسية الكامنة في هذا الفكر، الذي يبدأ بتمجيد الإنسان والعقل والتاريخ والفرد، وينتهي بإنكار العقل، وإعلان نهاية التاريخ وعدم مقدرة الإنسان على تجاوز سقفه المادي، والأسبقية المطلقة للمجتمع والطبيعة/ المادة على الإنسان. ويرجع هذا إلى أن فكر حركة الاستنارة فكر مادي لابد وأن يسقط في الواحدية المادية في نهاية الأمر. وبما أن المسيري يرى أن كلاً من فكر حركة الاستنارة وحركة التمركز حول الأنثى مجرد تجلِّيَيْن لنموذج العلمانية الشاملة؛ فقد حوَّل الدراستين السابقتين إلى فصلين في كتابه «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» (جزآن، صدرا أخيراً عام 2002م).

(50) قصص للأطفال: نور والذئب الشهير بالمكار (قصة خيالية جداً ـ قصص سريعة جداً) (بالاشتراك مع الدكتورة جيهان فاروق)

سندريلا وزينب هانم خاتون

رحلة إلى جزيرة الدويشة

معركة كبيرة صغيرة

سر اختفاء الذئب الشهير بالمكّار

ما هي النهاية؟

الناشر: دار الشروق، القاهرة، 1999م.

تعريف: تصدر هذه القصص في إطار سلسلة تسمَّى حكايات هذا الزمان، وهي تعبِّر عن نفس الأفكار والرُّؤى التي تنطلق منها وتعبِّر عنها

أعمال المسيري الأخرى (بما في ذلك موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية بطبيعة الحال). فابتداءً، هناك فكرة النماذج المعرفية، التي يعدُّها المسيري الأداة الأساسية في عمليتي الإدراك والتحليل. فثمة نموذج معرفي أساسي كامن وراء كل القصص، وهو نفس النموذج الكامن وراء الموسوعة من رفض للموضوعية المادية المتلقية، والنصوصية البَلْهاء، والمعلوماتية الفَجَّة، والسببية الصُّلبة (مثل الذئب في حكاية نور والذئب الشهير بالمكار الذي سقط في الموقف المعلوماتي النُّصوصي دون تحليل أو تفسير أو إدراك لما يطرأ على الواقع من تغيرات!)، إلى إيمان بالعقل التوليدي والسببية الفضفاضة والنماذج المفتوحة (النهايات المتغيرة) وبالحيز الإنساني (المختلف عن الحيز الطبيعي/ المادي) الذي يتحرك فيه الإنسان ويحقق فيه إنسانيته، فيؤكد إرادتَه وحريتَه ومقدرتَه على الاختيار. وقد بيَّن المسيري في مقدمة هذه الحكايات أن الأساطير التقليدية، مثل ذات الرداء الأحمر، لا يزال لها جمالها البدائي المبدئي الذي لا يُضاهَى، فهي تخاطب شيئاً أساسياً داخلنا، وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها بحجة أنها خيالية أو خرافية أو غير واقعية. ومع هذا، يجد الطفل، في العصر الحديث، نفسَه غيرَ قادر على دخول عالم الأسطورة التقليدية بسهولة ويُسر. فكل شيء في هذه الأساطير قديم عتيق (من منزل الجدة إلى الذئب). وهذه الأساطير، عِلاوةً على هذا، هي نتاج عصور تاريخية لم يكن فيها الإنسان سيدَ بيئته، ولذا فنحن نجد أن أبطالها إما عناصر طبيعية (حيوانات ـ طيور) أو عناصر بشرية خاضعة لسيطرة الطبيعة، مما يُفقدها كثيرًا من أهميتها وفاعليتها في العصر الحديث. كما تحاول حكايات هذا الزمان أن تعلِّم الأطفال كيف تُولَد القصة وتتطور وتتشكل، وأنواعَ القصص المختلفة،

فهي لا تكتفي بأن تُعطيه قصة، أي ثمرة الفكر، وإنما تعلِّمه طريقة القَصّ (أي طريقة حكاية القصة) التي تؤدي إلى الثمرة. والطفل بهذه الطريقة يحقق قدراً كبيراً من الاستقلال عن القصة وعمَّن يقصها عليه، كما يتعلم حرية الإرادة، ويدرك أن بالإمكان تغييرَ الواقع ليكون أجملَ وأفضل. وقد حصلت بعض القصص على جوائز.

(51) اليهود في عقل هؤلاء

الناشر: دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة 1998م، دار العين، القاهرة 2008م.

تعريف: يضم هذا الكتاب عدَّة دراسات: واحدة عن اليهود في عقل الأدباء أعضاء الجماعات اليهودية الذين يرفضون الصهيونية أو لا يكترثون بها (أيزاك بابل، فرانز كافكا... إلخ)، وعقل الأدباء الذين يهتمون بالصهيونية ويرون فيها حلاً للمسألة اليهودية (جوردون وبرنر). كما يضم دراسةً في فكر جمال حمدان الاستراتيجي، الذي وضع مصر (ومن ثَمَّ فلسطين) في المركز، وفي منهجه الذي لا يرفض العام ولكنه لا يكتفي به، إذ يصل إلى الخاص ويعبِّر عنه. وأخيراً يضم الكتاب الدراسة التي كتبها المسيري بمناسبة زيارة المفكر الفرنسي روعيه جاوردي القاهرة وتقديمه للمحاكمة، ويبيِّن فيها الفرق بين الأسطورة بالمعنى الإيجابي والأسطورة بالمعنى السَّلبي، ويحاول أن يبيِّن «منطقية» تحوُّل جاوردي للإسلام، فهو يبحث عن نظام يؤكد مقدرة الإنسان على تجاوز عالم المادة وسوق السِّلَع، وقد وجد ضالَّته في التوحيد الإسلامي (مقابل «واحديَّة السوق»).

(52) اليدُ الخفية: دراسةٌ في الحركات اليهودية الهدَّامة والسريَّة

الناشر: دار الشروق، القاهرة 1998م ومكتبة الأسرة، القاهرة 2000م ودار الشروق، القاهرة 2001م.

تعريف: يتناول الدكتور المسيري في هذا الكتاب ما يُسمَّى «العقلية التآمرية» التي تنظر إلى العالم من خلال النموذج الاختزالي ذي البُعد الواحد، ومن ثَمَّ تسقط في العنصرية، التي تبسِّط الواقع، وتجعل التعامل معه والتنبؤ به مسألة صعبة.. إن لم تكن مستحيلة. ويطرح المسيري مقابل هذا ما يُسميه «النموذجَ المركَّب». وقد استخدم عدة حالات للدراسة، منها: البروتوكولات، التلمود، السحر، الماسونية، البهائية، الفرانكية، السبئية، الجاسوسية اليهودية، الجريمة اليهودية، اللوبي اليهودي والصهيوني. كما تناول الكتاب إشكالية العبقرية اليهودية واللوبي اليهودي الصهيوني. وقد ضم هذا الكتاب بعض المواد التي وردت في كتاب الجمعيات السرية في العالم (من إصدار دار الهلال ـ القاهرة 1993م) بعد إعادة صياغتها وتطويرها والإضافة إليها. وأضاف الدكتور المسيري إلى الكتاب ملحقاً به دراسة تفصيلية عن النموذج الاختزالي والنموذج المركب، وعن المؤشر الاختزالي والمركَّب.

(53) الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤيةٌ حضاريةٌ جديدة

الناشر: دار الشروق، القاهرة 1997م، طبعة ثانية 1998م، طبعة ثالثة 2001م، طبعة رابعة 2005م.

تعريف: يتناول الكتاب الظاهرة النازية انطلاقاً من مستوى تحليلي حضاري معرفي يتجاوز السردَ التاريخيَّ والمستوى السياسيَّ، كما يتجاوز منطقَ مراكمة المعلومات والحقائق، ويستخدم منهج دراسة الظواهر التاريخية الحضارية من خلال النماذج التفسيرية. يبدأ الكتاب بتعريف

الإبادة وبعض المصطلحات الأساسية المرتبطة بها، ثم يتناول ظاهرة الإبادة في سياقها الحضاري والألماني، وبعضَ الإشكاليات السياسية والفلسفية التي تُثيرها إبادة يهود أوروبا على يد النازي، مثل إشكالية انفصال العِلم عن القيمة، وتوظيف الإبادة واحتكارها وإنكارها، وإشكالية الحل النهائي، وقضية عدد ضحايا الجريمة النازية، وملاحقة مُجرمي الحرب النازيين. ويُثير الكتاب واحدةً من أهم القضايا الخِلافية وهي قضية التعاون بين أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً الصهاينة) مع النازيين. ويتناول الكتاب كذلك المكانة التي تشغلها الإبادة النازية في الوجدان الفلسفي والأدبي الغربيين.

(54) من هو اليهودي؟

الناشر: دار الشروق، القاهرة 1997م، طبعة ثانية 2001م، طبعة ثالثة 2002م.

تعريف: يُواجه المجتمع الصهيوني في فلسطين المحتلة منذ تأسيسه عام 1948م قضية دينية اجتماعية أساسية، مركبة الأبعاد، متعددة المستويات، هي قضية الهُوية اليهودية وتعريف اليهودي، التي يُشار إليها في الخطاب السياسي والإعلامي، الإسرائيلي والغربي، بصيغة التساؤل: «من هو اليهودي؟». وقد حاول المسيري في هذا الكتاب إلقاء الضوء عليها، فتناولها من منظور تاريخي واجتماعي وسياسي وديني. يبدأ الكتاب بعرض تاريخي لظهور الهُويات اليهودية المختلفة في أنحاء العالم، وهي هُويات نابعة من الواقع الحضاري للمجتمعات التي عاش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانَيْها. ثم يقدِّم الكتاب خريطةً للهُويات اليهودية في الوقت الحاضر، وضمن ذلك الهُوية اليهودية

الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة والتعريف الديني الأرثوذكسي لهذه الهُوية. ثم يعرض الكتاب بعد ذلك للأطروحات الصهيونية التي تنطلق من ادعاءٍ ـ ليس له ما يسانده في الواقع ـ وهو أن اليهود شعب واحد، وأن الصهيونية هي القومية اليهودية. ثم يبيِّن الكتاب كيف أن الواقع الإثنيَّ والعِرْقيَّ للمستوطنين الصهاينة في فلسطين المحتلة، ويهود العالم خارجَها، يتحدَّى هذه الأطروحات ويبيِّن طبيعتَها الاختزالية وكذبَها وزيفَها. وفي الطبعة الثانية من هذا الكتاب أضاف المسيري فصلين: واحداً عن الفروق بين المذاهب اليهودية المختلفة (اليهودية الإصلاحية والمحافظة من جهة، والأرثوذكسية من جهة أخرى)، وآخر عن تطورات قضية «من هو اليهودي» خلال عام 1998م.

(55) موسوعة تاريخ الصهيونية

الناشر: دار الحسام، القاهرة 1997م.

تعريف: يستند هذا الكتاب إلى رؤية جديدة لتاريخ الصهيونية، إذ يرى المسيري أن الصهيونية لا تعود بجذورها إلى التوراة والتلمود، وإنَّما إلى حَرَكيات التاريخ الغربي وإلى الرؤية الإمبريالية العلمانية الشاملة. ومع هذا لا يهمل الكتاب الأبعادَ والدِّيباجات اليهودية الخاصة.

(56) الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية: دراساتٌ في بعض المفاهيم الصهيونية والممارسات الإسرائيلية

الناشر: مركز الأبحاث العربية، بيروت 1990م.

تعريف: ينقسم هذا الكتاب إلى قسمين، يتناول أولهما الظاهرة الصهيونية في سياقها الغربي، السياسي والاقتصادي والثقافي، كجزء من

التشكيل الاستعماري الغربي، وباعتبارها ظاهرةً استيطانيةً إحلالية. كما يتناول هذا القسم مفهوم تطبيع الشخصية اليهودية، أي تحويل يهود المنفى الطُّفَيليين - حسب الرؤية الصهيونية - إلى مواطنين مُنتجين ذوي انتماء قومي محدد، وهذا ما يُطلق عليه «عملية التطبيع». ويتناول القسم الثاني موضوعات أخرى مثل «القومية اليهودية» و«التوسعية الصهيونية». كما يتناول بعض الممارسات والظواهر الإسرائيلية مثل الجريمة والإرهاب، والهجرة الصهيونية إلى فلسطين المحتلة، والهجرة منها.

(57) دراسات في الشعر

الناشر: مكتبة الشروق الدولية، مصر - يناير 2007م.

تعريف: يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات النقدية. وما يجمعها أنها كلها دراسات في الشعر (تخصص الدكتور المسيري الأكاديمي) وأنها كلها تتَّبع منهج explication de text وبالإنجليزية explication أو close reading أي «القراءة النقدية المتمعِّنة»، وهو منهج يقتضي ألاَّ يصدر الناقد أي تعميم بدون أن يقوم بتحليل عميق لبنية النص ولغته وصوره المجازية وبدون أن يأتي بشواهد. ورغم أنه تم التركيز على النصوص وعلى البنية وعلى الصور المجازية بالدرجة الأولى، إلاَّ أنها لا تسقط بأية حال في الشكلانية، أي أن يركز الناقد على الشكل ويُهمل المضمون تماماً، وهو اتجاه ساد في الآونة الأخيرة ووصل إلى ذروته في النقد البنيوي وإلى هوَّته في النقد التفكيكي (ما بعد الحداثي)، إذ يفضل الدكتور أن يتعامل مع الشكل في النقطة التي يتقاطع فيها مع المضمون، بحيث يعبِّر المضمون عن نفسه من خلال الشكل، ولا يمكن فصل الواحد عن الآخر إلا كضرورة تحليلية. ويتناول كل فصل من

فصول الكتاب موضوعاً مختلفاً، فهناك فصل عن «الشعراء والموت» وآخر عن «الشعراء والزمن» وثالث عن «نزع القداسة عن العالم».

ثانياً: مؤلفات منشورة بالإنجليزية

- A Lover from Palestine and Other Poems (Palestine Information Office), Washington D.C., 1972.
- Israel and South Africa: The Progression of a Relationship (North American, New Brunswick, N.J., 1976).

  Second Edition 1977; Third Edition, 1980; Arabic Translation, 1980.
- The Land of Promise: A Critique of Political Zionism (North American, New Brunswick, N.J., 1977).
- Three Studies in English Literature: (North American, New Brunswick, N.J., 1979).
- The Palestinian Wedding: A Bilingual Anthology of Contemporary Palestinian Resistance Poetry (Three Continents Press, Washington D.C., 1983).
- A Land of Stone and Thyme: Palestinian Short Stories (Co - editor) (Quartet, London, 1996).

ثالثاً: مُؤلفات تُرجمت إلى لغات أخرى

- صهيونيسم: ترجمة لواء رودباري، ترجمة إلى الفارسية لكتاب موسوعة تاريخ الصهيونية (طهران، مؤسسة جاب وانتشارات، جمهورية إيران الإسلامية، 1994م).
- ترجمة Israel - Africa Do Sul: A Marcha Deum Relacionamento إلى اللغة البرتغالية لكتاب إسرائيل وجنوب أفريقيا: تطور العلاقة بينهما (ريو دي جانيرو، البرازيل، 1978م).
- Daha kapsamli ve aciklazici bir sekularizm paradigmasina

dogru: Modernite, ickinlik ve cozulme iliskisi uzerine bir calisma ترجمة إلى اللغة التركية لدراسة طويلة باللغة الإنجليزية بعنوان »نحو نموذج أكثر شمولية وتركيباً للعلمانية«، نُشرت موجزة في كتاب عن العلمانية في الشرق الأوسط Secularism in the Middle East, ed. John Esposito and Azzam al - Tamimi, (Hurst, London, 2000. (استانبول، تركيا، 1997م).

وقد تُرجمت العديد من المقالات التي كتبها الدكتور المسيري إلى لغات أخرى مثل الفرنسية والبهاسا.

ملحق

شهادات تقدير وجوائز محلية ودولية

* شهادة تقدير من رابطة المفكرين الإندونسيين (1994م).
* شهادة تقدير من جامعة القدس بفلسطين المحتلة (1995م).
* شهادة تقدير من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا (1996م).
* شهادة تقدير من نقابة أطباء القاهرة (1997م).
* شهادة تقدير من محافظة البحيرة (1998م).
* شهادة تقدير من اتحاد الطلبة الإندونسيين (1999م).
* شهادة تقدير من كلية الشريعة والقانون، جامعة الإمارات عن موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (1999م).
* شهادة تقدير من جريدة آفاق عربية بالقاهرة (1999م).
* شهادة تقدير من مؤتمر أدباء البحيرة (1999م).
* جائزة سوزان مبارك لأحسن كاتب لأدب الطفل (2000م).

* جائزة أحسن كتاب، معرض القاهرة الدولي للكتاب: عن كتاب رحلتي الفكرية (2001م).

* شهادة تقدير من منظمة فتح الفلسطينية (2001م).

* جائزة سلطان العويس بالإمارات العربية المتحدة عن مجمل الإنتاج الفكري (2002م).

* شهادة تقدير من مؤتمر أدباء مصر السابع عشر في الإسكندرية (2002م).

* شهادة تقدير من نقابة الأطباء العرب (2003م).

* جائزة سوزان مبارك أحسن كاتب لأدب الطفل (2003م)

DR. MASSIRI

From Materialism to Islamic Humanism

الكتابةُ عن الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري مهمّة صعبة من وُجوه عديدة، أولا لأنّه عالم شديدُ الاتساع والثّراء حتى أنه يكاد يكون صاحب مشروع متكامل لإعادة تأسيس العلوم الإنسانية وفق رُؤية عربية إسلامية (إنسانية) بعيدا عن تُراثها الضخم الواقع في أسْر المركزيّة الغربية، أو بتعبير آخر تأسيس "حداثة إسلامية". وقد كانت الحصيلة إنتاجاً كبيراً يجمع بين الغزارة والعُمق والتنوع...

من ناحية أخرى، فإنّ الدكتور عبد الوهاب المسيري مشروع ما زال يتحقّق حتى الآن، وبالتالي فإنّ الكتابة عنه وعن مشروعه الفكري هي محاولة للإحاطة بنبات ما زال ينمو ويعدُ بالمزيد، والكتابة عن الظواهر وهي لما تزل في حالة تشكّل وتحوّل وصيرورة، تنطوي على قدر من المغامرة.

مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي
بيروت – لبنان – بئر حسن – شارع السفارات – بناية الصباح – ط ٢
هاتف: 826233 1 961+ – فاكس: 820378 1 961+ - ص.ب: 25/55
E-mail:info@hadaraweb.com - www.hadaraweb.com